مَكْتَبَةُ نِظَامْ يَعْقُوبِي ٱلخَاصَّةِ - ٱلبَحْرَيْن
سِلْسِلَةُ أَعْلَامٍ وَأَقْلَامٍ
(٥)

المُحَدِّثُ ٱلعَلَّامَةُ ٱلشَّيْخُ
شُعَيْبُ الأَرْنَؤُوط

سِيرَتُهُ فِي طَلَبِ ٱلعِلْمِ وَجُهُودُهُ فِي تَحْقِيقِ ٱلتُّرَاثِ

بِقَلَم
إبراهيم الزّيبق

دَارُ البَشَائِرِ الإِسْلَامِيَّة

المحدِّثُ العلَّامةُ الشَّيخُ

شُعَيبُ الأرنؤوط

سيرتُهُ في طلبِ العلمِ

وجهودُهُ في تحقيقِ التُّراثِ

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
email: info@dar-albashaer.com
website: www. dar-albashaer.com

مكتبة نظام يعقوبي الخاصة - البحرين
سلسلة أعلام وأقلام
(٥)

المحدث العلامة الشيخ

شعيب الأرنؤوط

سيرته في طلب العلم وجهوده في تحقيق التراث

بقلم
إبراهيم الزيبق

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى شيخي العلَّامة المحدِّث

شُعَيب الأَرْنَؤوط

قطرة وفاء من بحر عطائك.

إبراهيم

مقدمة

إذا كان للقاءات الأولى في الذاكرة حياةٌ لا يعتريها الأفول، فإنَّ لقائي الأول مع أستاذي وشيخي شعيب الأرنؤوط ـ وقد مرَّ عليه الآن نحو أربعين سنة ـ كأنه قد حدث البارحة.

كانت المكتبة الظاهرية والعملُ فيها أجملَ أحلامي التي راودتني، وأنا أخطو على عتبتها أوَّل مرة، باحثاً فيها عن كتابٍ أستعين به على موضوع كلَّفني كتابته أستاذُ العربية في المرحلة الثانوية.

دلفتُ إلى هذا الحَرَم العلمي الكبير، ووقفت مع الواقفين أمام مستودع الكتب، أنتظر بلهفةٍ الكتاب الذي طلبت، ثم صَعِدتُ به إلى قاعة المطالعة، وهي قاعةٌ رحبة، يخيِّم عليها سكونٌ وجلال، ووقع في قلبي وقتئذٍ أنني في المكان الذي أحبّ.

ودارتِ الأيام دورتها، وبقي في قلبي حنينٌ لا يقاوم للظَّاهرية، حتى تحقَّقتِ الأمنية بعد جهد، وعُيِّنت في شهر أيلول من عام ١٩٧٤م أميناً لقاعة الباحثين فيها.

كنت في الواحدة والعشرين من عمري، وقد مُلئتُ حتى الثُّمالة بشغف القراءة، فاصطحبتُ من مكتبتي الجزء الأول من رائعة الرَّافعي «وحي القلم»، وكان كتابي الأثير.

دخلتُ القاعة، ولم يتنبَّه إليَّ أحدٌ من باحثيها، وقد عرفت منهم فيما بعد الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني، والشيخ الأستاذ محمد أحمد دهمان، والأستاذ عبد العزيز رباح، وغيرهم كثير، فقد كانوا مستغرقين في أبحاثهم وتحقيقاتهم، يجلِّلهم صمتٌ وسكون.

اتجهتُ بخطواتٍ وجلة هادئة ـ كيلا أجرح أديمَ السكون ـ نحو طاولتي، وهي طاولة فخمة عريضة، لا تتناسب وضآلة جسمي، فبدوتُ حين جلست إليها، وكأنني طالبٌ في الثانوية، قد تجرَّأ ودخل هذه القاعة المهيبة الخاصة بالباحثين، بل وأوغل في جرأته وجلس إلى طاولة المراقب فيها.

وفتحتُ كتابي، وشرعتُ في القراءة، إذ لم يكن لي مِنْ عملٍ إلَّا المراقبة، والمحافظة على كتب القاعة، وإرجاعها إلى أماكنها حين انتهاء الباحثين منها.

واستغرقتُ في القراءة كعادتي، ولم أشعر إلا بيدٍ ضخمة تُرَبِّتُ على كتفي، التفتُّ، كان شيخٌ في منتصف الأربعينيات من عمره، ينتصب أمامي بقامته الممشوقة وعينيه الزرقاوين الحادَّتين اللتين تشعَّان ذكاءً وفطنة، يبادرني بقوله: ماذا تقرأ؟ باغتني سؤاله،

فتلعثمتُ: «وحي القلم» للرَّافعي، فانبسطتْ أساريره، وطافت على شفتيه ابتسامةٌ صافية، وراح يردِّد: تحبُّ الأدب إذن؟ فتشجعت وقلت قبل أن يبادرني بسؤال آخر: أنا هنا موظف.. موظفٌ جديد.

وذابت في لحظات جفوةُ اللقاء الأول، وانسابت بيننا الأحاديث عن الرَّافعي وأدبه.. ثم تركني عائداً إلى طاولته، وقد نثر عليها مخطوطاتِه، ليغرق في طلاسمها..

وعرفتُ فيما بعد أن هذا الشيخ الجليل هو شعيب الأرنؤوط.

* * *

وهذه كانت أولى صفات شيخنا ـ حفظه الله ـ ما رأيت عالماً يفرح بطالب العلم كما يفرح هو، ويبذل له كل ما يستطيع بذله بسخاوة نفسٍ، وأريحية نادرة، ويتلاشى الزمن بينهما حتى كأنه ـ على ما بينهما من فارق في العلم والسن ـ أخٌ أو صديق، يحاور أخاً أو صديقاً.

ومن أوائل ما سمعتُ منه في تلك الحوارات عبارةٌ أثَّرت في تفكيري، ولم أسمعها من أحدٍ غيره: «لا تبع عقلك لأحد»، وهي عبارةٌ صادمة لمن لم يعتد على أدب الحوار، غير أنها تصبح لمن يتفهمها حقَّ الفهم منهجَ حياة.

* * *

على أن ما ملك عليه تفكيره، وكان دائم الانشغال به، هو تراثُ هذه الأمة، وكيف السبيل إلى تحقيقه ونشره، إذ يرى أن هذه النهضة الإسلامية الحديثة لا تتمكن ولا تثمر إلا إذا قامت على العلم الصحيح، وأنه لا علم إلا ما بُني على ما أسَّسه علماؤنا عبر تاريخهم في مناحي المعرفة من فقه وحديث وتفسير وتاريخ، مولياً نظره إلى تلك الكتب التي تجمع ما بين الشُّمول والعمق، وكان يرى أن هذا التراث العظيم لا تتسع له حياة فردٍ مهما تطل، بل لابد للنهوض به من جماعة متعاونة، يحدوها الحبُّ الخالص له.

وقد استطاع أن يبثَّ حبَّه للتراث واهتمامه به إلى من التفّ حوله من الشباب الذين آثروه وأحبوه، وأخلصوا له، لما وجدوا عنده من علم غزير، وإخلاص نادر، واطِّراح للتكلف، فكان منهم نواةَ مدرسةٍ لتحقيق التراث أثمرت وأينعت من بعد، كلهم الآن يفخر بشرف الانتساب إليه، ولا أعرف لشيخنا سلفاً في حضّ الشباب في الشَّام على الاهتمام بالتراث إلا ما يُحكى عن الشيخ طاهر الجزائري، والأستاذ محمد كرد علي.

وكنت ـ بحمد الله ـ واحداً من هؤلاء، فقد كان لي شرف العمل معه في تحقيق جزء من كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي، تلك المَعْلمة التاريخية العظيمة، ثم شرفني من بعدُ بانضمامي إليه في تحقيق ديوان من أعظم دواوين السُّنَّة، وهو «مسند الإمام أحمد ابن حنبل».

* * *

وأذكر يوماً، وأنا أقابل معه جزئي من «سير أعلام النبلاء» أنْ مرّ بنا في ترجمة أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري قولُ حمزةَ بنِ محمد بن طاهر فيه: «كان ابن الأنباري زاهداً متواضعاً، وحكى الدَّارقُطني أنه حضره، فصحَّف في اسْمٍ، قال: فأعظمتُ أن يُحمل عنه وهمٌ، وهِبْتُهُ، فعرَّفت مستمليه، فلما حضرت الجمعة الأخرى، قال ابن الأنباري لمستمليه: عَرِّفِ الجماعة أنّا صحفنا الاسم الفلاني، ونبَّهَنا عليه ذلك الشابُّ على الصَّواب».

قرأتُ هذا الخبر ذاهلاً عمَّا فيه، فإذا بالشيخ شعيب يستوقفني، وأسارير البِشْر على وجهه، ويقول لي وقد وضع مخطوط الكتاب على الطاولة: هذا خبرٌ لا يليق أن يمرَّ هكذا، لا بد له من تعليقٍ يناسبه. ونهض من مكانه، وراح يذرع الغرفة متأملاً، ثم التفت إليَّ، وقال: اكتب: «في هذه القصة تتجلَّى الروح العلمية بين أهل العلم في ذلك العصر الذهبي، فالدَّارقُطْني ـ رحمه الله ـ حين علم بخطأ ابن الأنباري لم يلجأ إلى التشهير به بين طلبته، وإنما لفتَ نظر مستمليه، والشيخ ابن الأنباري لم تأخذه العزة بالإثم، وإنما رجع عن الخطأ على رؤوس الأشهاد، وأمر الطلبة بإصلاحه، ونسب الفضل إلى أهله، ويا ليت طلبة العلم في هذا العصر يأخذون بهذا الأدب الإسلامي الرائع الذي يجعل الحقيقة العلمية فوق كل اعتبار».

كتبتُ ما أملاه عليَّ، ثم رجع إلى مكانه، وتابعتُ القراءة.

لم يكن ما أملاه عليَّ وقتئذٍ مجرَّد كلمات أحبَّ أن يسوّد فيها صفحات، وإنما كانت هي منهجه في الحياة، وفي العلم مع أصحابه ـ كما يحبُّ أن يسمي تلامذته ـ ومع كتبه فيما يحقق، كان لا يرضى الاستسلام الخاشع لكل ما يقول، بل يريدنا أن نناقشه، وأن نقارعه الحُجَّة بالحجة حتى ينكشف لنا وجه الصَّواب جميعاً، ومن ثَمَّ لم يكن مجلسه هذا المجلس الهامد السَّاكت، بل كان مجلساً يضجُّ بالحوار، وكان رأيه فيه من جملة الآراء، وما كان أيسرَ رجوعه إلى الحق حين يلوح له.

* * *

وتمضي بنا سفينةُ الأيام، ويشاء الله أن يكون لي شرف مشاركته في خدمة «مسند الإمام أحمد ابن حنبل»، مع صديقي الأثير وأخي الحبيب الشيخ محمد نعيم العرقسوسي، وفي دراستنا لإسناد حديثٍ من أحاديثه، خالفنا شيخَنا في تعيين أحد رواته، وأطلنا النَّفَس في إيضاح ما ذهبنا إليه، لأنَّ على صحة تعيينه يتوقف الحكم على إسناده، وكان للشيخ شعيب رأي آخر قد بسطه في تحقيقه لصحيح ابن حِبَّان.

فلما راجع الشيخ شعيب عملَنا، واطَّلع على ما كتبناه، وناقشنا فيه، أمسك بالقلم، وكتب في آخر التعليق، وكان في غُنْيَةٍ عن الكتابة: «قال شعيب ـ كان الله له ـ: وهذا التحقيق النفيس الذي انتهى إليه صاحباي الشيخ نعيم والأستاذ إبراهيم في التفريق بين أبي سَلَمة الجُهَني وبين موسى الجُهَني، وقد وافقتُهما عليه،

واقتنعت بصحته يلغي الخطأ الذي وقع مني في تعليقي على ابن حِبَّان. . . ».

وبينما كان الشيخ يخطّ هذه الكلمات المؤثرة تراءى لي ابنُ الأنباري في مجلسه ذاك، وتذكرتُ ما أملاه عليّ الشيخ وقتئذ. . هو موقفٌ واحد باعد الزمان بين ناسه قروناً، وردَّدتُ بيني وبين نفسي قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[1].

* * *

والشيخ شعيب في حبه للحوار والنقد إنما يأتسي بأئمة الجرح والتَّعديل في توخيهم الدقة والتمحيص، والصِدْقَ والعدل فيما يصدرون عنه من آراء، ويرى الاختلاف بين العلماء أمراً فطرياً، جُبل الناس عليه، فإنهم لم يزل يخالف بعضهم بعضاً كما قال الإمام أحمد، هذا الاختلاف البعيد عن الهوى، الطالب للحقِّ هو الذي يُثري حياتنا العلمية، ويعمِّق أصولها، ويمكِّن جذورها، ويعمر قلوبنا بالمحبة، هذه المحبة التي نحن المسلمين أحوج ما نكون إليها.

* * *

وفي أثناء صُحبتي له تلك السنين، كان أحياناً يحدِّثني عن فتراتٍ من تاريخ حياته، وما مرَّ به من تجارب، وكانت ذاكرتي الغضَّة تختزن تفاصيل ما يقول، حتى كان يومٌ صحَّ مني العزم على

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٤.

كتابة سيرته، وفاء له، واعترافاً بفضله، وضنّاً بها أن تُنسى، وهي جزءٌ من تاريخنا الثقافي. فرغبتُ إليه أن يحدثني من جديد عن تفاصيل حياته، طمعاً في إلقاء الضوء على بعض ظلالها، وكنت أشفق عليه من تعب السنين، وقد قارب الثمانين، فاستجاب لي ـ حفظه الله ـ وجلسنا أياماً معتزلين الناس، يملي عليّ من ذاكرته الشَّابة ما وقع له من أحداث، وما مرَّ به من تجارب، حتى استوفيتها كلها.

بيد أن الشَّواغل ما زالت تدافعني عنها بأعمالٍ لا يمكنني الاعتذار عنها، حتى تفرَّغت لها في هذه الأيام، فأرجو أن أكون قد أنجزتها على نحوٍ يرضى عنه منهجُ التاريخ والبحث العلمي، وأن يرى القارئ الكريم فيها صورةً أمينة لأيام خَلَت، وليس لي وراء الله مَرْمى.

دمشق في
٢٦ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ
٢٩ أيار ٢٠١١م

إبراهيم الزيبق

الأصل والنشأة

[١]

في اشكودرا[١]، عاصمة ألبانيا، وفي ظل الإمبراطورية العثمانية ولد محرَّم؛ والد الشيخ شعيب نحو سنة ١٨٦٩م/١٢٨٦هـ، لأسرةٍ كانت على شيء من الغنى، وتلقى في طفولته ما كان يتلقاه أترابه وقتئذٍ، فحفظ عن ظهر قلب سورة يس وجزء عم، ورسالة «علم الحال»، وهي رسالةٌ صغيرة ألَّفها العثمانيون، وطبعوها بلغات رعاياهم، تعرِّف الناشئة بالعقيدة الإسلامية، وواجبات المسلم.

ولم يُقدَّر لمحرَّم أن يتخطَّى في تعليمه عتبة هذه المرحلة، فنشأ أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب.

وحين توفي والد محرم شاباً، خلَّف له أخوين يصغرانه سناً، هما عبد الرحمن ورجب، فتكفل بتربيتهما.

وكان للأسرة أراضٍ زراعية، فتوازع الإخوة الثلاثة العمل فيها، فكان عبد الرحمن ورجب يقومان بزراعتها، والعناية بها، ويربيان الأبقار والأغنام، وكان محرَّم يتولى بيع محصولاتها في

---

(١) وتكتب كذلك: أشقودره لي، وفي الخرائط: سكوتاري.

العاصمة، وكانت تعجُّ في ذلك الوقت بالحركة والنشاط في المجالات كلها، إذ كانت مركزاً للعثمانيين، وفيها إدارة الجيش، وقد نبغ من أهلها علماء ومفكرون.

وكان محرَّم على أُمِّيته يحب أهل العلم، ويحضر دروسهم، وقد نبَّهه إلى ذلك أخوه الأصغر عبد الرحمن، إذ كان يدرس بالرُّشدية في اشكودرا، وهي مدرسة من جملة مدارس أنشأها العثمانيون في أنحاء البلاد كافة لتعليم الخط واللغة التركية وشيء من العربية وبعض العقائد الإسلامية، فكان بعض زملاء أخيه يزورونه في بيته، وأحياناً يبيتون عنده، وكان فيهم نوح نجاتي[1]، وهو يصغره بنحو تسع سنين، فكان محرَّم يصغي إلى أحاديثهم وحواراتهم، وكانوا أحياناً يزورونه مع أساتذتهم، فَتُثار تحت سمعه بعضُ قضايا الإسلام والمسلمين.

* * *

كانت الإمبراطورية العثمانية في ذلك الوقت تنحدر نحو مصيرها المحتوم، وغدت عند الأوربيين الرجل المريض الذي ينتظرون موته ليتقاسموا تَرِكته وثروته، وقد كانت ألبانيا من جملة البلاد التي انتُزعت منها، وولدت شبه علمانية، وذلك عام ١٩١٢م/ ١٣٣٠هـ، وارتبط مصيرها منذ البداية بمشيئة الدول الأوربية

---

(١) هو والد الشيخ ناصر الدِّين الألباني، وقد ولد نحو سنة ١٨٧٨م/ ١٢٩٥هـ.

الكبرى، التي أخذت على عاتقها تنظيم الدولة الوليدة، فاتفقت في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٣م/ ١٣٣١هـ على تنصيب نبيل ألماني مسيحي أميراً عليها، وأصدرت حكومتها المؤقتة في الشهر نفسه القانون المؤقت الذي ينصُّ على فصل الحقوق المدنية عن الشريعة الإسلامية.

وفي مطلع عام ١٩١٤م/ ١٣٣١هـ صاغت اللجنة الدولية للمراقبة المؤلفة من ممثلي الدول الأوربية الكبرى الدستور الأساسي لألبانيا، وقد نصَّ على أن ألبانيا ليس لها دين رسمي.

وتعمَّق اتجاه ألبانيا نحو العلمانية بصعود أحمد زوغو للسلطة فيها، فأثناء توليه وزارة الداخلية بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢١م/ ١٣٣٨ ـ ١٣٣٩هـ تخلَّت ألبانيا عن الحروف العربية لأبجديتها، واعتمدت الحروف اللاتينية.

وفي أثناء رئاسته للحكومة سنة ١٩٢٤م/ ١٣٤٢هـ أطلق الدعوة لإلغاء الحجاب، وأخذ يترسَّم في علمانيته خُطى كمال أتاتورك في تركيا، بل حاول أن يتفوق عليه في هذا المجال[١].

❑❑❑

---

(١) انظر كتاب «دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان» لمحمد الأرنؤوط (ص١٤٧ ـ ١٤٨)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي ـ تونس، ومركز جمعة الماجد للثقافة بدبي، سنة ١٩٩٦م.

[٢]

عزَّ على محرَّم أن يشهد هذه المتغيرات المتسارعة، التي تخلع عن وطنه هويته الإسلامية، ليصبح جزءاً من دولة أوربية علمانية، وهو الذي عاش عمره يتفيأ ظلال الإسلام في تلك الربوع الجميلة، وخاف على ذرِّيته إن هو مات أن ترتد عن دينها في هذه الدولة الجديدة، وأثقلت كاهليه هواجسُه ومخاوفه، فراح يتخفَّف منها ببثها إلى زملاء أخيه عبد الرحمن وأساتذته الذين كانوا يختلفون إلى زيارته، عساه أن يجد عندهم جواباً شافياً لتساؤلاته، فكان من جملة ما ذكروه له أن على المسلم إن خاف في وطنه على دينه أن يُفتن فيه، أن يهاجر منه، وإن لم يهاجر يقع تحت وعيد الله تعالى له بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[١]. وقد ذكروا له فيما ذكروا بلاد الشام، وأنها أفضل بلاد للهجرة، كما ورد في أحاديث نبوية تتحدث عن فضلها وفضل أهلها[٢].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٢) من هذه الأحاديث قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ بارك لنا في شامنا» أخرجه أحمد في «المسند» (٥٦٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٠١) من حديث =

وتمكَّنت هذه الآياتُ والأحاديث من قلبه القلق المهموم، حتى عقد العزم على الهجرة إلى الشَّام.

وتهيئة لهذه الرِّحلة الطويلة الشَّاقة قرَّر مع نوح نجاتي ـ وقد صحَّ عزمه على الهجرة كذلك ـ أن يسافرا وحدهما يستطلعان البلاد، حتى إذا وصلا إلى مِصْر لم يَطِب لهما المقام فيها، فتابعا طريقهما نحو دمشق، واطمأنا لما رأوه من صلاح أهلها، وترددهم إلى مساجدها، وقد غصَّت بحلقات العلم، فمكثا فيها قليلاً، ثم رجعا إلى ألبانيا، استعداداً للهجرة مع الأهل والأولاد.

فباع محرَّم ما كان يملكه من أراضٍ زراعية، وتقاسم مع إخوته تركة أبيه، وباع نصيبه منها، وحثَّ أخويه على الهجرة معه، فاستجابا له، واستجابت له أخته كذلك، حتى إذا اكتملت الاستعدادات اتخذت العائلة بأفرادها الكثيرين طريقها نحو دمشق، وكان معهم في رحلتهم نوح نجاتي مع عائلته(١).

= عبد الله بن عمر. وقوله ﷺ: «**عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده**» أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٠٠٥)، وأبو داود (٢٤٨٣) من حديث عبد الله بن حوالة. وقوله ﷺ: «**إن الله تكفل لي بالشام وأهله**» أخرجه ابن حبان (٧٣٠٦) من حديث عبد الله بن حوالة.

(١) كان يرافقه في هجرته ولده محمد ناصر الدِّين الألباني، وكان له من العمر نحو اثنتي عشرة سنة.

ووصلوا بعد رحلة طويلة شاقة إلى دمشق، وكان ذلك عام ١٩٢٦م[1]/ ١٣٤٤هـ.

❑❑❑

---

(١) لم ينتظر محرم أن يشهد صدور القانون المدني سنة ١٩٢٨م/ ١٣٤٦هـ المستل من القوانين الفرنسية والألمانية والإيطالية والسويسرية، وقد فصل فيه القضاة الشرعيين عن عملهم بعد أن ألغى هذا القانون الجديد وظائفهم، ولم يشهد تحويل أحمد زوغو الحكم في البلاد من النظام الجمهوري إلى النظام الملكي الذي اكتمل في ١ أيلول ١٩٢٨م/ ١٣٤٧هـ بإعلان نفسه ملكاً، وتخليه عن اسمه العربي التركي، وتسمّيه: «زوغ الأول».
انظر: «دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان» (ص١٤٨).

[٢]

حين وصل محرَّم إلى دمشق كان في نحو السَّابعة والخمسين من عمره، وفي حي مسجد الأقصاب اشترى بيتاً سكن فيه مع أخيه رجب، وسكن رفيق رحلته نوح نجاتي قريباً منه في حكر السَّرايا[١].

أما أخوه عبد الرحمن، فما عتَّم أن رجع إلى ألبانيا، إثر مرض زوجته المفاجئ، على أمل العودة إلى دمشق بعد شفائها، غير أنها توفيت بعد وصولها إلى ألبانيا بنحو أسبوعين، فتزوج عبد الرحمن

---

(١) لم يهاجر من ألبانيا إلى دمشق إلا أُسَر ثلاث: أسرة محرم، وأسرة الشيخ نوح نجاتي، ثم هاجرت بعدهما أسرة الشيخ سليمان الغاوجي، وذلك نحو سنة ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ.
أما سائر الأرنؤوط في دمشق، فمعظمهم من كوسوفا في يوغسلافيا السابقة، ومقدونية، وكانت هجرتهم إلى تركيا أولاً، ومن تابع طريقه منهم إلى دمشق سكن في الديوانية، بين شارع بغداد ومنطقة العدوي، وكانت بساتين، فبنوا منازلهم فيها.
وممن جاء من كوسوفا صوقل بن عبدول، وذلك سنة ١٩٣١م/ ١٣٥٠هـ مع صغيره قدري ذي السنوات الثلاث، الذي عرف فيما بعد بالشيخ عبد القادر الأرنؤوط.

من أختها، وآثر المقام هناك، ولم تحدثه نفسه بالعودة إلى دمشق، ثم انقطعت أخباره عن أخويه.

وكان اعتماد محرَّم في معاشه على المال الذي جلبه من ألبانيا، حتى إذا قارب النفاد، قال لأخيه رجب: لا بد لنا من أن نجد عملاً نتعيَّش منه.

فعمل أولاً في رصف الشوارع، وكانت تُرصف في ذلك الوقت بالحجارة السُّود، وهي صنعة تحتاج إلى مهارة وذكاء ودُربة، فأتقنها، وقد درّت عليه مبلغاً مكَّنه من الحياة في سَعَة.

بيد أنها مهنة تتطلَّب جهداً كبيراً، وتعدُّ من أصعب الأعمال وأشقِّها، لا يقوى عليها جسده، وقد قارب الستين، فتركها، وتعلَّم صنعة أخرى هي تنظيف شجر الحور والجوز، وكانت من أخشابها تُصنع أسقف المنازل وأبوابها، ولاقى هذا العمل في نفسه هوى، فاستمرَّ فيه برغم أنه لا يقلُّ مشقة عن ذاك العمل.

* * *

ومع توالي الأيام زايل محرَّماً شعورُه بالغُرْبة، لِمَا كان يلقى في دمشق من لُطف أهلها، وحفاوتهم بكلِّ غريب، وقد عُرف ذلك عبر تاريخها الطويل

وتزداد سعادته حين رُزق بعد سنتين من هجرته، وذلك سنة ١٩٢٨م/ ١٣٤٦هـ بأوَّل مولود له ذكر، وقد جاءه على كِبَر، فسمَّاه شعيباً، تيمُّناً باسم ذلك النبي الكريم.

حتى إذا كان عام ١٩٣٣م/ ١٣٥٢هـ وقد بلغ فيه شعيب من عمره خمساً، سارع به أبوه إلى المدرسة العلمية التجارية، وكانت تقع في زقاق الرَّازي قرب البيمارستان النوري في الحريقة، ليتلقى فيها علوم الشريعة والعربية، وقد اختار له هذه المدرسة الخاصة نأياً به عن مدارس الحكومة لما كان يعتقد فيها من إفساد للطلبة، وإبعاد لهم عن دينهم.

ولأن المسافة بعيدة بين حي مسجد الأقصاب حيث يسكن، وبين حي الحريقة حيث تقع المدرسة كان يتولَّى أخذه إليها منير ابن الشيخ نوح نجاتي، وكان يكبره سناً.

* * *

كان نظام التعليم في المرحلة الابتدائية يبدأ من الصف الأول التمهيدي، وهو أشبه بالحضانة، ثم الصف الثاني التمهيدي، ثم منه ينتقل إلى الصف الأول الابتدائي حيث يتدرَّج من بعد حتى الصف الخامس.

وكان التعليم في ذلك الوقت على شيء من القسوة والغِلظة، فقد كان الطلبة يستفتحون نهارهم صباحاً، بمرأى عصا الخيزران طافيةً في بحيرة المدرسة، تنتظر الأقدام العارية لتنهال عليها لَسْعاً وضرباً، ولذلك غدت المدرسة في أعينهم سجناً صغيراً، فما إن تُفتح أبوابها ظهراً للانصراف منها، حتى يطلقوا سيقانهم للريح، متنفسين الصُّعداء.

وممن كان يدرِّس فيها في ذلك الوقت الشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ عبد الرحمن الخطيب، والأستاذ محمد خير الجلاد.

بقي شعيب في هذه المدرسة يترقَّى في صفوفها حتى وصل إلى الصف الرَّابع، وقد بلغ من عمره عشر سنين، وكان له أن يستمرَّ فيها، لولا أن وقع له فيها حادثٌ أفضى إلى خروجه منها.

فقد عبث ذات يوم ـ كما يعبث الأطفال ـ مع صديقٍ له في أثناء صلاته، فأضحكه، ولم يكن ـ وهو الصغير ـ يعي معنى هذا الفعل، فانتبه إليه الأستاذ محمد خير الجلاد، فما كان منه في اليوم التالي إلا أن أحضر شعيباً على رؤوس الأشهاد، وطرحه أرضاً، لتتلقَّفه يدان ضخمتان رفعتا قدميه في الهواء، وانهال عليه ضرباً بعصا الخيزران المبللة، وصرخ الصغير، وهو يتلوَّى من ألم لسعاتها، غير أن أحداً لم يسمع صراخه، ولما نهض لم يتمالك الوقوف على قدميه من شدة الوجع، وعاد ظهراً إلى البيت ليرتمي في حضن أمه ناشجاً بمرارة، ومعلناً رأيه بصراحة: لن أعود بعد اليوم إلى تلك المدرسة.

فنقله أبوه إلى مدرسة الأدب الإسلامي، قرب جامع الجوزة، وهي قريبة من بيته، فأتمَّ فيها الصف الرَّابع، ولم تكن هذه المدرسة التي يديرها الشيخ أمين الحنفي تخلو من قسوة بيد أنها أخفُّ من

سابقتها، وحين أنهى فيها الصف الخامس، وهو في الثانية عشرة من عمره كانت نفسه قد عافت الدراسة في المدارس، فانقطع عنها غير آسفٍ عليها، مستعيضاً عنها بتلك المجالس التي كانت تُعقد في بيته مع أصدقاء أبيه.

❑❑❑

[٤]

وبيت محرَّم كان مثل أكثر بيوت دمشق في تلك الأيام، لا تسلية فيه إلا تلك اللقاءات المسائية التي تضمُّ الأقارب مرَّة، والأصدقاء مرة أخرى، فكان محرَّم حين يعود من عمله يقضي فيه أمسياته مع أصدقائه الألبان والأتراك، وقد جمعت بينهما محنةٌ واحدة، وأغلبهم من أهل العلم مثل صديق رحلته الشيخ نوح نجاتي، والشيخ سليمان الغاوجي، والشيخ محمد الترك[١]، وينضم إليهم الحاج قاسم[٢]، وهو قهوجي السلطان عبد الحميد، يتبادلون الرأي حول بعض المسائل الفقهية، ويتطارحون ذكرياتهم في بلادهم، وما وقع لهم فيها من أحداث، ويلمُّون أحياناً بما جرى

---

(١) كان الشيخ محمد الترك إمام جامع السُّلْطان أحمد الثالث في استانبول، وهاجر من تركيا في أيام أتاتورك، وأقام في دمشق، وعلى ورعه وعلمه كان لا يعرف العربية، فباعد ذلك بينه وبين علماء دمشق، وقد تعلم صنعة «الكلّاج» ـ وهو نوع من الحلويات ـ ليتعيَّش منها، فكان يصنعه في بيته، ثم يرسله إلى السوق لبيعه، وبيته كان يضم مكتبة عظيمة باللغة التركية العثمانية.

(٢) كان على عاميته ذكيًّا جدًّا، وقد اتسعت خبرته في الحياة لمجالسته كبراء العثمانيين.

من وقائع الحرب العالمية الأولى، وما جرّته على المسلمين من مصائب وويلات، لم تنته بانهيار الإمبراطورية العثمانية، وتفرُّقهم أيدي سبأ هرباً من حكامهم الجدد.

وكان الفتى شعيب يجلس إليهم، مصغياً بشوق إلى حديثهم الممتع، سارحاً في خياله وراء كلماتهم، وما تصوِّره من أحداث، متعلماً منهم معنى الإخلاص الذي دفعهم إلى الهجرة من بلادهم في سبيل دينهم، وكان مع كل أمسية من تلك الأماسي يشعر أن عقله يتفتح، واهتماماتِه تتَّسع، حتى إن تلك المجالس غدت مدرسته التي يتعلَّم فيها، وبها يجد لذة العلم وجماله بعيداً عن أسْرِ المدرسة وقسوتها.

أما في أيام الجُمَع فكان شعيبٌ يسعى فيها مع أبيه لصلاة الجمعة في جامع التوبة بالعُقيبة، ويستمع إلى خطيبه الفقيه الشيخ محمد سعيد البُرْهاني، وهو يشرح في خطبته بعض الأحكام الفقهية على مذهب أبي حنيفة بعبارة جزلة، وأسلوب ميَّسر.

وأحياناً يزور مع أبيه حي الدِّيوانية، حيث يسكن معظم الأرنؤوط المهاجرين، حتى سُمِّي بحي الأرنؤوط، بيد أنه كان يشعر بشيء من الغُرْبة مع أترابه، لما يجد من الاختلاف بينهم وبينه في التفكير والاهتمامات، وقد أنس إلى واحد من لِدَاته هو قدري الأرنؤوط[1]، فكان الصديق الأقربَ إلى قلبه.

---

(١) هو صديق عمره الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، وهذا الاسم هو الذي اشتهر به فيما بعد، وبه عرف.

وبقي الفتى شعيب يتقلّب في نعيم تلك المجالس نحو أربع سنين، حتى إذا كان عام ١٩٤٤م/ ١٣٦٣هـ، وقد بلغ السَّادسة عشرة من عمره، دعاه داعي السِّنِّ إلى العمل، فلم يعد يليق بفتى مثله أن يظل متبطلاً لا عمل له، فاختير له محل بقالة في حارة الشَّالة(١) من حي سوق ساروجة ليبدأ منه رحلة العمل.

❑❑❑

(١) كانت حارة الشالة تقع في سوق ساروجة، شمالي البحصة، وقد أزيلت عند تنظيم منطقة البحصة في ستينيات القرن الماضي.

على دروب العلم

[١]

كان صاحب محلٍّ البقالة، وهو أبو نادر إبراهيم الجَنْدلي، في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، له أُنسٌ بالفقه، وميلٌ للتصوف، وقد اقتنى بعض كتبه، ووضعها على رفٍّ في زاوية محله ليطالع فيها في أوقات فراغه، من هذه الكتب «مكاشفة القلوب المقرِّب من علام الغيوب» المنسوب لحُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي، و«روض الرياحين في حكايا الصَّالحين» لليافعي، وعنده كذلك «حاشية الصَّاوي على تفسير الجلالين»، وكان مُحِبًّا للشيخ عارف الدُّوَجي، ملازماً له.

والشيخ عارف الدُّوَجي ـ وقد قارب الستين ـ كان من تلامذة المحدِّث الأكبر الشيخ بدر الدِّين الحسني، وأحد المعيدين في درسه، وقد تفرَّغ الآن للعلم والعبادة بعد أن ترك عمله في التجارة للخسائر التي ركبته، والتي كادت تأتي على ثروته التي ورثها عن أبيه، فقنع بكفاف العيش من أجرة دكاكين بقيت له، فكان يفتتح نهاره بصلاة الفجر في المسجد الأموي القريب من بيته، ثم يشرع في الأذكار والتسبيح وقراءة القرآن ـ وكان حافظاً له ـ حتى ترتفع الضُّحى، فيخرج إلى سوق باب البريد ليشتري منه ما يحتاجه،

ثم يعود أدراجه إلى البيت، ليعكف فيه على قراءة كتب الفقه ـ وكان بارعاً فيه ـ حتى إذا ما أُذِّن للظهر رجع إلى المسجد للصَّلاة فيه، ثم يعود إلى بيته لتناول طعام الغداء، فإذا ما أُذِّن للعصر، وفرغ من صلاته اتخذ طريقه نحو محل تلميذه إبراهيم الجندلي في حارة الشَّالة من حي سوق ساروجة، ليفتتح فيه أول دروسه، فيقرئه بعض مبادئ العربية من كتاب «الدروس النحوية» لحفني ناصف ورفاقه، ثم يتابع دروسه مع طلابه الآخرين في أماكن عملهم وبيوتهم حتى ينتصف الليل، ثم يعود إلى بيته، ليبدأ في الفجر برنامجه المعتاد.

كانت تتناهى إلى سَمْع شعيب ـ وهو المشغول بأعباء المحل ـ نُتَفٌ مما يلقيه الشيخ عارف على تلميذه، فتلتقطها أذنه، وتعود بها ذاكرته إلى تلك السنين الخوالي التي كان فيها تلميذاً في المدرسة العلمية التجارية ومدرسة الأدب الإسلامي، فيسترجع في ذهنه صدى تلك القواعد التي كاد ينساها. . هذا المشهد كان يتكرر عصر كل يوم، ومعه كان يحنُّ إلى تلك الأيام، ويوقظ هذا الحنين في أعماقه رغبةً في التعلم، يحرِّك ساكنها الغيرة والتحدي، قائلاً بينه وبين نفسه: إذا كان إبراهيم على كِبَرِ سِنِّه يحاول أن يتعلم العربية، فما بالي أنا على صِغَرِ سِنِّي مستنكفاً عنها؟ وتستبدُّ هذه الرغبة في قلبه، حتى تستعلن ذات يوم، فإذا بشعيبٍ يتقدَّم نحو الشيخ عارف الدُّوَجي على استحياء يستأذنه في مشاركة إبراهيم في درسه، ويشرق وجه الشيخ بابتسامته الصَّافية، مرحِّباً به، قائلاً له بحبّ: ليس عندي أي مانع.

ويتسع منذ ذلك اليوم مجلس الشيخ عارف، لينضمَّ إليه تلميذه الجديد.

ويثير شعيبٌ انتباه الشيخ إليه منذ الدرس الأول، إذ كان يتقن حِفْظ الدرس واستيعابه، بينما كان إبراهيم يتلكأ في فهم بعض عبارته.

ويزداد الشيخ اهتماماً به، فكان كثيراً ما يتوقف عن متابعة الدرس حين يقطعه زبون جاء ليشتري، منتظراً عودة شعيب إليه.

وذات يوم يقترح الشيخ عارف على فتاه ـ وقد لمس رغبته العارمة في العلم ـ أن يقرئه كتاباً في الفقه، ويقع اختياره على كتاب «كشف الحقائق شرح كنز الدقائق» للشيخ عبد الحكيم الأفغاني، وهو شرح نفيسٌ في فقه أبي حنيفة لكتاب «كنز الدقائق» للإمام النّسَفي.

ويُقبل شعيب على الدرس، ويُؤخذ حقاً بفصاحة شيخه ودقة شَرْحه، إذ كان على براعته في الفقه ذا منطق جميل، تنسال الكلمات من فِيْه عذبة جزلة، تشدُّ السَّامع إليه دون أن يتسرَّب إلى نفسه مللٌ أو سآمة.

ويُحبِّبُ الشيخ لفتاه شعيب قراءة الأدب ـ وهو المجيد له كذلك ـ ويقترح عليه أن يقرأ ما خطَّتْه أناملُ المنفلوطي، حتى يأنس باللغة، وتستقيم عبارته، ويعكف شعيب على قراءته، سابحاً في خياله مع نظراته وعبراته، ملتاعاً مع مجدولين تحت ظلال

الزيزفون، ويبلغ التأثر به مما يقرأ، فيحسُّ بدموعه تنهمر على خدَّيه.

ولن ينسى شعيبٌ ذلك المساء من يوم الثلاثاء ٢٩ أيار ١٩٤٥م/ ١٣٦٤هـ حين اضطرَّهم قصف القنابل ودويُّها، وهي تتساقط بالقُرْب منهم على «البرلمان» إلى قَطْع الدرس، والاختباء عند جارٍ لهم في قبو بيته، كانت فرنسة في تلك الليلة ترتكب أبشع مجازرها في دمشق، حتى إذا هدأ القصف قليلاً، لاذ كلٌّ منهم تحت جُنْح الظلام الكئيب إلى بيته، وقلبه حانقٌ على هذا المستعمر البغيض.

❑❑❑

[٢]

ويضيق البيت بشعيب، وهو يأوي إليه عقب انصرافه من عمله بعد غروب شمس كلِّ يوم، وكانت نَهْمته للعلم قد اشتدَّت، وبدأ يشعر أن ما يتلقاه عن شيخه عارف الدُّوَجي لا يشفي غليله، وتلفتَ أنَّى يذهب، وهو الشابُّ الخجول، فلم يجد أمامه إلا الشيوخ الألبان أصدقاء والده: الشيخ نوح نجاتي، والشيخ سليمان الغاوجي، فسعى إليهما، فكان يزور الشيخ نوح نجاتي في بيته في حكر السَّرايا في أيام الجُمَع، أما الشيخ سليمان الغاوجي فكان إماماً في مسجد العمرية في حي العمارة الجوَّانية، فصار يختلف إليه عند صلاة المغرب ليصلي خلفه، وليجلس بين يديه يتلقى عنه دروس النحو والفقه الحنفي، وكان يشاركه في درسه ابنُ عمه وابن عمته، بيد أنهما سرعان ما انصرفا عنه، ليجد نفسه وحيداً مع الشيخ سليمان في غرفته الصغيرة في المسجد من بعد صلاة المغرب وحتى صلاة العشاء.

فقرأ عليه أول ما قرأ كتاب «العوامل في النحو» للإمام البركوي، وهو كتابٌ أشبه ما يكون بالأجرومية، ثم ثنَّى بقراءة كتاب «إظهار الأسرار» في النحو كذلك للإمام البركوي، ثم انتقل إلى

قراءة «الكافية» في النحو لأبي عمرو بن الحاجب، وشَرْحها للمولى الجامي، وهو من أنفس شروحها.

وقرأ عليه في الفقه كتاب «مراقي الفلاح» للشرنبلالي، وكتاب «الطريقة المحمدية» للإمام البركوي.

وكان للشيخ سليمان أسلوبٌ شائق في إلقاء الدرس، يشدُّ سامعه إليه، فكان شعيبٌ يجلس إليه وقد ملك الشيخ عليه قلبه ومشاعره، وكان أكثر ما يحب في درسه تلك الأمثال الرائعة التي يضربها لتقرِّب إلى ذهنه المعاني الغامضة، التي تفتح له آفاقاً في فهم هذا الإسلام العظيم، بلهجة عربية مُشْرَبة بلُكْنته الأعجمية، بيد أنه كان يجد صعوبة في فهم النحو العربي منه، لأن الشيخ سليمان كان يقتصر فيه على ذكر القاعدة دون أن يوضِّحها بالشَّواهد التي تجلوها.

❑❑❑

[٣]

ومع مرور الأيام كانت معارف شعيب تزداد، وتزداد معها ثقته بنفسه.

وكان يسكن قرب محله في حارة الشَّالة أستاذ العربية وشيخُها محمد سليم الجُنْدي، فكان شعيبٌ يرنو إليه بإجلال، وهو يراه يمرُّ كل يوم قرب محله، بخطواته الهادئة، وطربوشه الأحمر، وعلى وجهه تلألأت نظارته البيضاء، فأضفت على ملامحه الجادة رصانةً وهيبة، كانت تحول بين شعيب وبين سلامه عليه، ولم يكن شعيب يأمل أن تتلبث خُطى هذا الأستاذ الجليل أمام محله يوماً، إذ كانت مهمة شراء ما يحتاج إليه قد تركها لابنه طريف.

كان طريفٌ طالباً في الصَّف العاشر في ثانوية التجهيز الأولى، وقد امتلأ ثقة بنفسه لمنزلة أبيه، ولما يتمتع به هو من تحصيل علمي، وما كان ليخطر في باله يوماً أن هذا الفتى النحيل الذي يقوم على شؤون هذا المحل قد شدا شيئاً من العلم، ومن ثَمَّ فوجئ ذات يوم بشعيب وهو يداعبه ببعض الأسئلة في الإعراب والقواعد، فقال له طريفٌ مستغرباً: من أين عرفتَ هذا؟ فردَّ عليه شعيبٌ باعتزاز: وأنا أيضاً أدرس وأتعلم. بيد أن طريفاً ما كان ليدع هذا الفتى

يتفوق عليه، فسأله أن يقطِّع له بيتاً من الشِّعْر، فحار شعيب، وتوقف مبهوتاً: ما معنى أن يقطِّع بيت الشعر؟ وكيف يقطِّعه؟ وأحسَّ في أعماقه بجُرح غائر: ما زال علمه ناقصاً، وكثيرة هي الأشياء التي عليه أن يتعلمها؛ فسأل طريفاً بتواضع عن هذا العلم الذي يمكنه من معرفة ذلك، فأجابه طريف باطمئنان العارف: إنه علم العَروض، وستجده في كتاب «ميزان الذهب في صناعة شعر العرب» لأحمد الهاشمي.

وعلى الفور اشترى شعيب هذا الكتاب، وانكبَّ على قراءته ودرسه، فحفظ بحور الشعر وزِحافاتها وعِللها حتى لم يعد يستعصي عليه أي بحر من بحوره.

وكانت بواعث الشعر قد تحرَّكت في أعماقه مما يقرأ للمنفلوطي، فبدأ ينظم بعض الأبيات مستوحياً معانيها منه.

❑❑❑

[٤]

وامتدَّت يده ذات يوم، وقد خلا المحل من زبائنه، إلى كتاب «مكاشفة القلوب» مقلباً في صفحاته، قارئاً بعضَ أخباره التي تتحدَّث عن الخوف من الله تعالى، وغلبة النفس وشهواتها، وذمِّ الدنيا والمال، وشدة الموت، وعذاب القبر، فإذا به يكتشف جانباً من الحياة لم يكن يفكر فيه، فأوغل في قراءته، وشعر بنسائم من السَّكينة والخشية من الله تغمر قلبه الخافق، وتصفي نفسه من أكدارها.

وغدا هذا الكتاب جليسه المفضَّل كل يوم في أويقات فراغه، ومع كل خبر من أخباره كانت تتسلَّل إلى نفسه رغبةٌ تناديه للعزلة عن الناس، ونِشْدان الخلوة، يخفت صوتها حيناً، ويعلو أحياناً، حتى قادته قدماه ذات يوم إلى مقبرة قريبة، فافترش الأرض بين قبورها، وهناك في هذا الصَّمت الرَّائق والسُّكون الوادع أحسَّ بأُنس الوَحْشة، وتراءت أمام ناظريه أحوالُ أهلها، وما كانوا يتقلَّبون به في الدنيا، وما آلوا إليه، واجتاح قلبه حزنٌ صامت.

وغدت المقبرة مِنْ بعدُ مكانه الأثير الذي يأوي إليه، ناشداً فيه الأُنس والسَّلوة، منقِّلاً بصره ساعاتٍ طويلة بين شواهد قبورها، وقد

خُطَّت عليها أسماء أصحابها وتواريخ مغادرتهم للدنيا، رافعاً رأسه نحو سمائها. . وقد استغرقه يوماً النظر إليها، متأمِّلاً زرقتها الصَّافية، فإذا به يحسُّ حقاً كأنَّ أبوابها قد فُتحت له، وهو منجذبٌ إليها.

ولكي يديم مشاعره تلك تقيَّد بالأذكار التي يرشده الكتاب إليها، وأدمن قراءة القرآن الكريم، وقد تمادت به محبته للعزلة حتى صار يضيق بالناس ولقاءاتهم، ويتمنى لو تدوم له هذه الخلوة، وتحكَّم هذا الكتاب بأعماله ومشاعره، فكان يعرضها عليه، فما أَمَرَه به فعله، وما نهاه عنه تركه، فهو الضَّابط لكل حركة من حركاته، ولكل خاطرة من خواطره، وبات يعتقد حقاً أنه لم يعد يقارف ذنباً.

ويتنبه إلى حالته تلك شيخُه عارف الدُّوَجي، فيحاول إخراجه منها قبل أن تستبدَّ به، فيتلطَّف إليه ذات يوم، وقد توطدت علاقته به، فيدعوه إلى حضور درسه يوم الجمعة، وكان يعقده في بيت شيخه المحدِّث الأكبر بدر الدِّين الحسني ـ رحمه الله ـ في حارة النَّقَّاشات من حي النَّوْفرة، شرقي الجامع الأموي، قائلاً له: وهناك أيضاً نقرأ ختمة من القرآن الكريم.

ويستجيب الفتى شعيبٌ لشيخه، ويذهب عصر يوم الجمعة إلى بيت الشيخ بدر الدِّين الحسني، فيجد الناس قد سبقوه إليه، وكانوا نحو المئة، فيجلس بينهم، ويستلُّ من الختمة جزءاً من القرآن يقرأ فيه، حتى إذا فُرغ من قراءتها تصدَّر المجلس الشيخ عارف

الدُّوَجي، وألقى درساً في التصوف من كتاب «الرِّسالة القُشَيرية»، ثم نهض الجمع بعد انتهاء الدرس، وتحلقوا متشابكي الأيدي، وراحوا يتمايلون على وَقْع ذِكْر الله باللفظ المفرد: الله . . الله. ووقف مع الواقفين شيخٌ مهيب عرَفَ شعيب فيما بعد أنه الشيخ محمد الهاشمي، وقد توسَّط الحلقة الشيخ محمد سعيد البرهاني، خطيبه المحبوب في جامع التَّوبة، وألفى شعيب نفسه، وقد انتظم بالحلقة، بين شابين جَلْدين يتمايلان، وتسارع الإيقاع، واشتدَّ الرَّقص، حتى لم يعد يُسمع من لفظ الجلالة إلا هَمْهَمة لا تبين حروفها، فأحسَّ حينئذٍ في أعماقه أن ما يقوم به غلط، فتوقف ساكناً لا يتحرَّك في هذا الجمع المتماوج، فأخلَّ وقوفه المفاجئ بإيقاع الحَضْرة، وعلى الفور تقدَّم نحوه رجلٌ، وسحبه من يده، وأوقفه بين الشيوخ الذين لا يتمايلون، وكان فيهم شيخه عارف الدُّوَجي.

وسأله سائل بعد انتهاء الحضرة: لماذا لم تتمايل مع المتمايلين؟! فتمتم بكلمات خجولة عَنَتْ في فحواها أنَّه قرأ في كتب الفقه الحنفي أنها حرامٌ لا تحلّ.

❑❑❑

[٥]

كان الشيخ نوح نجاتي قد أعطاه في إحدى زياراته له كتيباً بعنوان: «الرَّهص والوَقْص لمستحلِّ الرَّقص»، استعرض فيه مؤلفه إبراهيم بن محمد الحلبي، وهو من كبار فقهاء الحنفية في القرن العاشر الهجري، أدلة أئمة الفقه وإجماعهم على حُرْمتها.

ومرَّ به حكم حرمتها، وهو يقرأ كتاب «الطريقة المحمَّدية» للإمام البركوي على شيخه سليمان الغاوجي.

ودبَّ في نفسه منذ تلك الجلسة دبيبُ صراع لن يهدأ بين ما يقرؤه في الكتب، وبين ما عليه النَّاس؛ صراع يشتدُّ حيناً، ويضعف حيناً آخر.

فقد حذَّره شيخاه نوح وسليمان أشدَّ التحذير من حضورها حين بثَّ شكواه إليهما، بيد أن هذا التصوف المراقب لله، والمهذب للنفس يستميله ويستهويه، ألم يقضِ أجمل ساعات يومه في قراءة كتاب «مكاشفة القلوب»؟ ألم يتفتح قلبه لتلك المواعظ النَّدية من الشيخ محمد الهاشمي، وقد بات يجلُّه ويحترمه؟

والفقه والنحو، ألم يهب نفسه إليهما، وهو يقضي السَّاعات

في حفظ قواعدهما، وفهم عبارتهما؟ ألم يقرأ سورة الأعلى كل يوم عقب أذان المغرب، سائلاً الله أن يثبت حفظه كما أوصاه الصَّاوي وهو يقرأ حاشيته على الجلالين؟ فأي الطريقين يختار؟

ورأى نفسه عصر يوم الجمعة متجهاً الى بيت الشيخ بدر الدِّين، وفي قلبه ذلك الاستنكار للحضرة، وقد دفع ذلك الشيخ كمال الشميساتي؛ وهو من تلاميذ الشيخ محمد الهاشمي الى زيارته في محله، مؤنِّباً له على موقفه ذاك، قائلاً له: أنت شابٌّ على خُلق ومودة، ولكن لِمَ تنكر علينا يا أخي هذا الذكر؟ وتخلى شعيبٌ عن خجله، وصدع بما في نفسه قائلاً: لستُ أنا الذي ينكر هذا، هكذا قرأتُ في مذهب أبي حنيفة، وهكذا علَّمني أشياخي.

وبقي مبلبلَ العقل والشُّعور بين دواعي حضور الدرس، وبين إنكار الحضرة حتى داهمه مرضُ التهابِ القصبات إثر برد قارس تعرَّض له في شتاء ١٩٤٦م/ ١٣٦٥هـ، أقعده في البيت، وألزمه فراشه، فانقطع عن العمل في محل إبراهيم الجندلي، ولم يعد يسعى إلى بيت الشيخ بدر الدِّين، بل إنه انقطع عن شيخه عارف الدُّوَجي، ولم يعد يلتقيه مِنْ بعدُ أبداً[1].

❑❑❑

(١) كان قد اعتزل الناس في أخريات أيامه، ثم ما لبث أن توفي عام ١٩٥١م/ ١٣٧٠هـ، رحمه الله.

[٦]

حين أبلَّ شعيبٌ من مرضه، كان بحاجة إلى نقاهة يستعيد بها قواه، فانصرف عن العمل، وراح يقضي أيامه بين شيخيه الأثيرين: الشيخ نوح، والشيخ سليمان، ويعرِّج أحياناً على المكتبة الظاهرية كي يطَّلع على كتبها.

كان الشيخ نوح نجاتي ينزع إلى ورع وتقوى، عُرف بهما مذ كان في بلده ألبانيا[1]، وكان على دراية جيدة بفقه أبي حنيفة، بيد أنه كان شديد العصبية لمذهبه، مقلداً له تقليداً لا يخرج عن أدقِّ مسائله، بحيث لا تكاد تجد في مكتبته أي كتاب لأصحاب المذاهب الأخرى، وقد امتهن في دمشق مهنة تصليح السَّاعات، وعلَّمها أولاده[2].

---

(١) تذكر قصة تدل على شهرته بالورع والتقوى في بلده، فقد توفي ذات يوم رجل ورع وهو ساجد في صلاته للعصر، وبعد دفنه آثر أهل البلد أن يعطوا جبته لرجل يماثله في الورع، فلم يجدوا من يستحقها إلا الشيخ نوح نجاتي، فأعطوه إياها، فكان يلبسها في الأعياد تبركاً بها.

(٢) للشيخ نوح ستة أبناء ذكور، وهم على الترتيب: نجيب، فخري، محمد ناجي، محمد ناصر، محمد منصور (أبو جعفر)، منير، وابنة اسمها وحيدة.

وحال حاجز اللغة بينه وبين الاتصال بعلماء الشَّام، فهو على معرفته للعربية، وقراءته لها كان لا يستطيع أن يتحدَّث بها إلا جملة أو جملتين، ثم ينقطع، وهل ثمة غير اللغة تكون جسراً إلى الناس؟ فغلب عليه الانزواء، بل الانطواء، فلم يكن يجلس إلى الناس أو يتحدَّث إليهم، وزاده جفاء عنهم ما يلوح في قسمات وجهه من جهامة ـ وقد أورثها أولاده ـ لم يعتدها أهل الشام، وهم المعروفون بالحفاوة والبشاشة.

وكان إلى إتقانه فقه أبي حنيفة يتقن علم الفلك وعلم العَروض، وتجويد القرآن الكريم، ولقد لقَّن ابنه محمد ناصر الدِّين مبادئه، بيد أنَّ ابنه اتَّجه فيما بعد إلى علم الحديث الشريف، منقِّباً عن أسانيده، متعرِّفاً إلى رواته، وظهر منه ما ظهر من عنفوان طالب العلم، وإنكاره على أئمة الفقهاء، وغلوِّه في الإنكار، وخاصةً على أبي حنيفة، إمام أبيه الأثير، فوقع بينه وبين أبيه ما يقع بين كلِّ اثنين يذهب كلٌّ منهما بغلوه إلى شأوه الأقصى، ولم يكن عند الشيخ نوح نجاتي من سَعَة الصَّدر، ولا عند ابنه محمد ناصر الدِّين من حُسن التَّأتي ما يخفِّف من صدامهما، فساء رأي الأب بابنه، وهو يراه يخرج عن أقوال الفقهاء، معتمداً على ما صحَّ عنده من الأحاديث، فصار يعيره بقوله: طلب الحديث حرفة المفاليس[1]! وساء رأي الابن بأبيه، وهو يراه مقلداً

(١) هي كلمة كان يردِّدها من قبله الإمام الحافظ الفضل بن موسى السِّيناني المتوفى سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

تقليداً أعمى لمذهب أبي حنيفة، مُعْرضاً عن الحديث وإن صحَّ، فاتخذ كلٌّ منهما قراره الذي لا رجعة عنه، أن يتدابرا حتى في الصَّلاة التي تجمع بين المسلمين على اختلاف آرائهم ومذاهبهم، فاستنكف كلٌّ منهما أن يصلي خلف الآخر، وبات يعتقد أن الصَّلاة لا تصحُّ خلفه، وانحاز في هذه المعركة الصَّمَّاء إلى محمد ناصر الدِّين بعضُ إخوته، فرأى الأب استحالة العيش في بيتٍ واحد مع ولدٍ له يخالفه، فأصدر قراره الصَّارم بأن على محمد ناصر الدِّين ومن يشايعه من إخوته ترك البيت.

فانتقل الأولاد ـ ما خلا ابنه الأكبر نجيب، وابنته وحيدة ـ عن منزل أبيهم، وسكن محمد ناصر الدِّين في الدِّيوانية، وغرق الشيخ في وحدته، فلزم بيته في حكر السَّرايا، وترك مهنته في تصليح السَّاعات، وعاش متكفِّفاً بما ينفقه أولاده عليه.

كان الشيخ نوح نجاتي في وحدته الحزينة تلك، وقد بلغ الثَّامنة والستين، يبحث عمَّن يبثه لواعج نفسه، بلغة ألبانية كان يتقنها غاية الإتقان، وإذا بشعيبٍ يطرق بابه ذات يوم مبدِّداً صمت وحدته.

وتنعقد بين الشيخ نوح نجاتي والشَّاب شعيب صلةٌ أقرب ما تكون إلى الصَّداقة، فكانا يخرجان معاً حين تدعوهما نسائمُ الرَّبيع وآصال الصيف إلى نزهة، قاطعين على أقدامهما المسافات الطويلة بين بساتين دمشق، وهما يتجاذبان أطرافَ الحديث؛ الشيخ نوح بخبرته وتجاربه وفقهه، وشعيب بحُسْن إصغائه، وتوقه للمعرفة،

وكان لهما في مذاكرة علم العَروض استراحةٌ من النِّقاش أحياناً، وقد أنس كلٌّ واحد منهما بالآخر، وتمكَّنت محبَّتُه في قلبه، وكأنهما تعاهدا ألا يفترقا أبداً، فكانا أحياناً حين يختلفان في بعض المسائل الفقهية، يردُّ الشيخ نوح بهدوء، ثم يعتصم بقوله: أنا هكذا اقتنع بهذه المسألة. تاركاً لصاحبه شعيب أن يفهم منها غير ما فهمه، وكان شعيب يترفَّق في ردِّه ولا يجادل.

وفي بعض الأيام كانا يمرَّان في طريقهما بالشَّيخ محمد ناصر الدِّين في محله لتصليح الساعات، وكان لصيق جامع الجوزة في حي العمارة البرَّانية، تدفع الأب نحو ابنه عاطفةٌ تستعلي على الخلاف، فكان يقف مسلِّماً عليه، سائلاً له عن أحواله وأحوال إخوته، ثم يمضي في طريقه دون أن يسمح لنفسه بالجلوس عنده. ويسأله شعيب ذات يوم بعد إحدى تلك الزِّيارات: هل صحيح ما يشيعه النَّاس عنك أنك غاضبٌ على ولدك محمد ناصر؟ وينتفض قلبُ الأب من لذع هذا السؤال، ويردِّد بصوتٍ حزين: لا، أبداً، أنا أغضب عليه؟ لِمَ؟ أنا أقول: إنه مخطئ ولا أصلي خلفه، ومن يدري ربما يكون هو المصيب، لِمَ أغضب عليه؟ لِمَ؟ ويتابع الشيخ نوح طريقه بخطواتٍ أثقلها الحزن، ويتبعه شعيب متعثِّراً بسؤاله.

❑❑❑

[٧]

ومكانه الأثير الآخر الذي كان يأوي إليه غروبَ شمسٍ كلِّ يوم هو مسجد العمرية، يصلِّي فيه صلاة المغرب، ويجلس بين يدي شيخه سليمان الغاوجي في غرفته الصَّغيرة، يُكمل عليه قراءة ما بدأ به، وقد خصَّص لكل يوم كتاباً، فيقرأ عليه في يوم «الكافية» لابن الحاجب مع شرحها للمولى الجامي، وفي آخر يقرأ عليه كتاب «الطريقة المحمدية» للإمام البركوي، وفي ثالث يقرأ عليه «مراقي الفلاح»، وتتفتح كل يوم أمامه معاني هذا الفقه العظيم، وتتسع مداركه، وفي الآونة الأخيرة أضاف له شيخه كتاباً جديداً، هو «تعليم المتعلم طريق التعلم» للزرنوجي، وقد ترك هذا الكتاب في نفسه أثراً كبيراً، إذ عرف من خلاله قيمة الوقت، فبات يحرص على الاستفادة من وقته غاية الحرص.

هكذا كانت أيامه تمضي رتيبةً ساكنة، لا يحرِّكها جديد، حتى كان يوم في منتصف عام ١٩٤٧م/ ١٣٦٦هـ تغيب فيه الشيخ سليمان عن صلاة المغرب لأمرٍ عَرَضَ له، وألفى شعيبٌ نفسه وحيداً في مسجد لا يشدُّه إليه إلا شيخه، فحدثته نفسه: لِمَ لا ينطلق إلى الجامع الأموي، وهو قريب، ليصلي فيه صلاة المغرب، وهي فرصةٌ لن تتاح

له إلا في غيبة شيخه، ونادراً ما يغيب؟ وأسرع في الخروج من المسجد، وما هي إلا خطواتٌ قطعَها في حارةٍ ضيقة حتى كان أمام باب الجامع الشمالي، الذي يسمَّى بابَ العمارة، دخله، وهو يجيل الطَّرْف في الجامع الكبير، مستمتعاً برحابته، ورشاقة مآذنه، وشموخ جدرانه، ووقعت عينه فيما وقعت على صديق طفولته عبد القادر الأرنؤوط، فخفَّ إليه، وبادره بالسَّلام، وبعد كلمات قليلة عرف منه أنه منتظمٌ في حلقة بالجامع لدراسة العربية، ودعاه للجلوس في حلقته، فوافقت دعوتُه هوًى في نفسه، فما إن أتمَّا صلاة المغرب وسُنَّتها حتى انضمَّ مع صديقه إلى حلقة تصدَّرها شيخٌ شاب، في نحو الخامسة والعشرين من عمره، وبدأ الدرس.

كان الدرس في قواعد العربية، وبعد أن بَسْمل الشيخ وحَمْدل، وصلَّى على النبي ﷺ التفتَ إلى أحد الطلاب، طالباً منه إعراب بيتٍ من معلَّقة زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ   وإنْ خالها تخفى على النَّاس تُعلمِ

وانطلق الطالب يهدر بإعرابه، ومما قاله: «من» حرف جر زائد، و«خليقة» اسم «تكن» مجرور لفظاً، مرفوع محلاً، وجملة «تخفى على الناس» في محل نصب مفعول به ثان لفعل «خال» الذي ينصب مفعولين.

واعترت شعيباً دهشةٌ لما يسمع، فقد سمع إعراباً لا عهد له به من قبل على كثرة ما حضر من دروس النحو عند شيخه سليمان،

وتحرَّكت مشاعر الغيرة لديه: لِمَ لا يكون مثل هذا الطالب في علمه وتمكُّنه في النَّحْو؟ وهمس في أذن صديقه عبد القادر: مَنْ هذا الشيخ؟ فأجابه عبد القادر بصوتٍ خفيض: هو الأستاذ محمد أديب الكلَّاس.

وانفضَّتِ الحلقة عند أذان العشاء، واقترب شعيبٌ من الطَّالب يُسلِّم عليه، ثم سأله عن اسمه، فقال: عبد الحق الصَّافي، فقال له شعيب: كم لك من الوقت وأنت تدرس النحو؟ قال: نحو ثمانية أشهر، فندَّت عنه عبارة إعجاب ممزوجة بدهشة: ما شاء الله، ما شاء الله! ثم أردف: أتقرأ مع هذا الأستاذ؟ قال: نعم، كل يوم بين المغرب والعشاء.

في طريق عودته إلى البيت عرف من صديقه عبد القادر أن الأستاذ محمد أديب الكلاس يتخذ طريقه عقب صلاة العشاء نحو حي القيمرية، حيث جامع فتحي، ليتابع دروسه هناك في الفقه والتفسير على شيخه محمد صالح فرفور.

❑❑❑

[٨]

وودَّع شعيبٌ صديقه عبد القادر عند منعطف الطريق، عائداً إلى بيته، وصورة الأستاذ لا تفارق مخيلته، وهو يقارن بينه وبين شيخه سليمان الغاوجي، أين هذا الدرس في حيويته وأمثلته الكثيرة من ذاك الدرس السَّاكن، الذي لا يكاد شيخه يتجاوز فيه عبارة المؤلف على صعوبتها؟ وإذا ضرب مثالاً لتقريب فهمها، فهو مثالٌ واحد لا يكاد يتعداه، ولا يذكر طوال تلك الأيام أنه أعرَبَ بيتاً في الدرس أبداً، ولا كتب له واجباً.

وكان مع كل خطوة يخطوها نحو البيت ينعقد في نفسه قرار: لا بدَّ من تغيير الشيخ.

في البيت صارح أباه بما يجول في خاطره، وإذا به يصطدم برفضه البات، قائلاً له بلهجة حازمة: عليك أن تحضر دروس الشيخ سليمان، ولا أرضى لك أن تتركه.

وجلس شعيب في غرفته وحده يفكر في مشكلته، لعلَّه يجد حلاً لها، يوفِّق فيه بين حضور درس الأستاذ أديب الكلاس، وحضور درس الشيخ سليمان الغاوجي، إرضاءً لأبيه، وأخيراً تهدَّى إلى حل.

في اليوم التالي حضر درس شيخه سليمان الغاوجي في مسجد العمرية، وحين أزِفَ وقتُ العشاء، أسرع إلى الجامع الأموي للصَّلاة فيه، وهناك التقى الشيخ محمد أديب الكلاس، وعرض عليه مشكلته، طالباً منه مساعدته، فقال الشيخ أديب: كيف؟، فقال شعيب: آتي كل يوم إلى الجامع الأموي عند صلاة العشاء، ثم أرافقك في طريقك إلى جامع فتحي في القيمرية، وفي الطريق تعطيني الدرس، وأنا أحفظه في البيت، وأكتب واجبه، وهكذا في اليوم الثاني.. ووافق الشيخ أديب الكلاس، وهو يرى اندفاع الشابِّ وحماسه.

وبدأ الدرس الأول على وَقْع خطواتهما الخافتة في أزقة دمشق ودروبها التي تفصل الجامع الأموي عن جامع فتحي، كان الشيخ أديب يشرح قواعد العربية من الكتاب الثالث من دروس النحو لمصطفى طمُّوم غير مبالٍ بلغَط العامة وصخبهم، وكان شعيبٌ يلتقط بأذن واعية وفكر يَقِظ كلَّ كلمة يقولها الشيخ.

ظل هذا ديدنه نحو ستة أشهر، يبدأ الدرس عند عتبة الجامع الأموي لينتهي عند عتبة جامع فتحي، حيث يطوي كتابه، ويفارق شيخه، والألم يعتصر قلبه على فراقه.

وفي كلِّ مساء من تلك الأماسي كان يبثُّ أمه ما يعانيه من حزن وألم، وكانت الأم بعاطفتها وحبِّها تنقل معاناة ابنها إلى أبيه، حتى تجرَّأ شعيبٌ يوماً، وقال له: أنا لم أعد أستفيد من دروس الشيخ سليمان الغاوجي، فأرجو أن تأذن لي بحضور الدرس في

الجامع الأموي. ويبدو أن الأب رقَّ أخيراً لحال ابنه، فأَذِنَ له.

وانتظم شعيبٌ في حلقة الشيخ محمد أديب الكلاس في الجامع الأموي، وفي أحد الأيام وقعتْ عينه أوَّل مرة على الشيخ الذي طالما سمع باسمه، وحنَّ إلى لقائه، وهو الشيخ محمد صالح فرفور، وكان يلقي درساً في التفسير، وقد تحلَّق طلابه حوله، فجلس هو بينهم.

وتطلَّعت نفسه إلى حضور دروس ما بعد العشاء في جامع فتحي، وطال شوقه إلى تلك الدروس، وكان أبوه يمانع في تأخُّره إلى ما بعد العشاء، فاقترح على أبيه يوماً وقد ازداد جُرْأة أن يذهب معه إلى جامع فتحي، ويلتقي هناك الشيخ محمد صالح فرفور، ويتعرَّف إليه، عساه أن يأنس إليه، وكان أبوه، وهو الغريب، لا يأنس إلا لمشايخ بلده، واستجاب الأبُ لاقتراح ابنه، وتعرَّف إلى الشيخ صالح وطلابه الأساتذة: أديب الكلاس، وعبد الرزاق الحلبي، وصبحي البغجاتي، وفي طريق العودة أَذِنَ الأبُ لابنه بحضور دروس الشيخ محمد صالح فرفور.

ونال شعيبٌ أخيراً ما تمنَّاه، ففي مساء كلِّ يوم كان يجلس إلى حلقة أستاذه أديب الكلاس في الجامع الأموي بين المغرب والعشاء، وما إن ينفتل من صلاة العشاء حتى يرافق أستاذه نحو جامع فتحي في حي القيمرية، متخطِّياً عتبة بابه التي طالما وقف دونها، ليتابعا معاً دروس شيخهما محمد صالح فرفور.

❑ ❑ ❑

جامع فتحي
نقلة وتحوُّلات

[١]

حين اجتاز شعيب عتبة جامع فتحي في حي القيمرية بعد العشاء ليحضر فيه درس الشيخ محمد صالح فرفور أوَّل مرة، كان يجتاز في الوقت نفسه عتبة العشرين من عمره.

وكان قد استأنف العمل بعد انقطاعه عنه، فانتظم بين العاملين في محل أديب الطواشي في حي مسجد الأقصاب، وهو بائعُ جملةٍ لمواد البقالة.

وعلى عادة شباب ذلك العصر فقد تعمَّم بالعِمامة الصَّفراء(١).

* * *

كان الشيخ محمد صالح فرفور في نحو الثَّامنة والأربعين من عمره، وقد تلقى العلم عن مشايخ عصره، بيد أنه لازم ملازمة تامَّة شيخين كبيرين منهم،هما: المحدِّث الأكبر الشيخ محمد بدر الدِّين الحسني، والشيخ الفقيه صالح بن أسعد الحِمْصي، وتتلمذ على

(١) كان يطلق عليها أهل الشام: لفة لام ــ ألف، وهي من الأغباني؛ نسيج من حرير أبيض يزدان بنقوش من حرير أصفر، ويَعْتَمُّ بها غالباً التجار، أما العلماء فكانوا يتعممون بالعمامة البيضاء على طربوش أحمر.

مفتي الشَّام الشيخ محمد عطاء الله الكسم، وتفرَّغ قبل نحو عشر سنوات لنشر العلم الشرعي، وجعل من جامع فتحي إحدى مدارسه.

بيد أن الدراسة فيه لم تكن تنقسم إلى مراحل تعليمية، بل كانت تُعقد فيه حلقاتٌ يقوم عليها تلاميذُ الشيخ، كل حلقة في علم من العلوم: العربية، التفسير، العقيدة، الفقه، فكان طالبُ العلم يختار الحلقة التي يُعجب بدرسها، وينتظم فيها.

ولم تكن لهذه الحلقات مراحلُ كذلك، إذ كان طالب العلم يجلس إلى إحدى هذه الحلقات ما شاء من الوقت، فإذا أتقن علماً من العلوم عُرف ذلك منه دون أن يتقدَّم إلى امتحان، بل يُعرف مستواه العلمي من خلال إجاباته عن الأسئلة التي يلقيها الأستاذ في أثناء الدرس، وأحياناً كان يُطلب منه أن يذكر ما فهمه، أو يُعلِّل حكماً من الأحكام.

هذه الأسئلة المفاجئة هي التي كانت تكشف المستوى العلمي للطالب، وبمرور الوقت تتولَّد قناعة عند الأستاذ بأن الطالب أصبح حقًّا متمكِّناً في علم من العلوم، فيُمنح إجازة شفهية أو كتابية، تشهد له، ويصبح بعدها أهلاً لأن يتصدَّر حلقة من حلقات الجامع.

* * *

أما دروس الشيخ محمد صالح فرفور، فهي لجميع طلبة الجامع، كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وعامِّيِّهم، قديمهم ومُحْدثهم.

فله عقب صلاة العشاء بثلث ساعة من كلِّ يوم درسٌ في التفسير.

أما صباح كل يوم ـ ما عدا يوم الجمعة ـ فله درسٌ في «حاشية ابن عابدين» يمتدُّ ما بين شروق الشمس وحتى الضحوة الكبرى.

أما صباح يوم الجمعة، فله درسٌ يقرأ فيه «إحياء علوم الدِّين» لحُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي.

وكان له درسٌ كل يوم ثلاثاء في بيوت طلابه، يختم فيه القرآن الكريم، ويقرأ فيه موعظة من «الرِّسالة القُشَيريَّة».

* * *

كان شعيبٌ بالنسبة لمن سبقه من الطلاب في جامع فتحي ذا مستوى ضعيف، فهو لم يألف تلك الطريقة التي كانوا ينتهجونها في دروسهم، فعلى الرغم من معلوماته الوفيرة في العربية والفقه، مما تلقاه من شيخيه: نوح نجاتي وسليمان الغاوجي كان يحسُّ بالعجز، فهؤلاء الطلاب على قلَّة معرفتهم كانوا أقدرَ منه على تطبيق القاعدة التي تعلَّموها، فهو يعرف حقًّا قواعد الإعراب بيد أنه لا يستطيع أن يُعْرب، ويعرف كثيراً من مسائل الفقه بيد أنه ليس فقيهاً، فكان يجلس في دروس الشيخ محمد صالح فرفور صامتاً، يتلقى كل ما يُلقى عليه باستسلامٍ وسكون، لا يشارك في الدرس بأية إجابة أو سؤال، حَسْبُه أن يستمعَ، وأن يستمع.

❑❑❑

[٢]

بملازمة شعيبٍ دروسَ الشيخ محمد صالح فرفور صار يُعدُّ من طلابه، وأتاح له ذلك أن يَشْغَل مثلهم غرفة من غُرَف جامع فتحي، كان يشاركه فيها شابٌ يكبره بنحو ثلاث سنوات، هو الشَّيخ عبد الرزاق الحلبي.

وفي أثناء إقامته في الجامع كان يختلف إلى مكتبته، ويتصفَّح ما فيها من كتب، ورأى أنه بالقراءة والمطالعة يستطيع تقليص الفجوة العلمية ما بينه وبين الطلاب الذين سبقوه، وأغراه شغفه بالقراءة إلى الاستزادة من الكتب الجديدة، فكان شراؤها سبيلَه إلى قراءتها.

وأكثر ما استحوذ على إعجابه واهتمامه من دروس الشيخ محمد صالح فرفور درس التفسير، وكان يقرأ فيه تفسير النَّسَفي، وهو في فحواه تفسير الزَّمَخْشري «الكشَّاف» بعد تجريده من الآراء الاعتزالية، مع ما أضافه إليه النَّسَفي من مسائل فقهية، وهو الفقيه الحنفيُّ الكبير.

وكان الشيخ صالح بارعاً حقاً في التفسير، وقد ألمّ بالعلوم التي تتعلَّق به، فكان يُكتب في الدرس على اللوح الآيات المراد تفسيرها، ويتولَّى أحدُ طلابه النُّجباء قراءة ما أورده النَّسَفي فيها، ثم يتصدَّى الشيخ محمد صالح لتفسير ما لم يَرِد في التفسير، وكان كلما مرَّ على نُكْتة بلاغية أو نَحْوية أو أسلوبية أو جمالية يستفيض في شرحها، ويطرح أسئلة عنها كي يطمئنَّ إلى حُسْن فهمها، وفي هذا الباب كان يأتي بأبحاث يطرب لها الطلاب.

وحرصاً على مزيد من الفهم اهتدى شعيبٌ إلى أهمية تحضير الآيات المراد تفسيرها قبل الدَّرْس، فكان يعكف على ستة تفاسير أو سبعة، يقرأ فيها، ويهتمُّ مزيداً من الاهتمام بالمسائل النحوية واللغوية والبلاغية، وقد أكسبه ذلك بعد زمن قصير تفوقاً على أقرانه وزملائه ممن كان يعتمد في فهمه على ما يلقيه الشيخ في الدرس فحسب.

وبدأت يدُ شعيب ترتفع بالدرس على استحياء ليجيب عن بعض أسئلة الشيخ صالح، وبدأ الشيخ يلتفت إلى هذا الطَّالب الجديد، ويُثني على أجوبته. ولم ينقضِ عامان على حضوره حتى غدا هو وشيخه السَّابق محمد أديب الكلاس نجمي الدرس، عليهما يعتمد الشيخ في تفسير بعض الآيات فيه، وإن ظل الشيخ محمد أديب أكثر توغلاً في إدراك المعنى الذي يحتاج إدراكه إلى تفكُّر وتأمُّل.

* * *

في أثناء هذين العامين وقعتْ له حادثتان تركتا أثراً في نفسه، أُولاها حين قال له ذات يوم صديقه عبد الرَّزَّاق الحلبي: هل لك أن تزور ضريح الشيخ محيي الدِّين بن عربي في الصَّالحية؟ فوافق شعيب، وذهبا معاً، فصلَّيا المغرب في مسجده، وبعد الصَّلاة أقيمت حلقة ذِكْر، وعلى وقع الأصوات الشَّجية تمايل القوم، فانتحى شعيبٌ جانباً، وقد أذهله أن يرى صديقه عبد الرزاق يتمايل مع المتمايلين.

في طريق العودة عاتبه شعيبٌ، قائلاً له: لقد ارتكبتَ إثماً في مشاركتك في تلك الحلقة، وقد نصَّت كتبُ الفقه الحنفي على تحريمها. فوجئ صديقه بالنقد، فردَّ، ثم حلَّ الصَّمت والجفاء بينهما حتى وصلا.

في الغرفة سارَع شعيبٌ إلى إخراج الكتب التي نصَّت على تحريمها، وراح يقرأ فيها على مسامع صديقه، إلا أنه أصمَّ أذنيه، وقال: لا أريد أن أسمع. ثم أشاع في صباح اليوم التالي عن شعيب أنه وهابي، وهي تهمةٌ خطيرة في الشَّام. ولم ينقض سوى أسبوعين حتى انتشرت تلك القالة بين طلاب الجامع كلِّهم، فأخذوا يزورُّون عنه.

وضاقت عليه نفسُه، وهو يكتوي بنار الظلم، فانتظر حتى إذا فرغ الشيخ صالح من درس «إحياء علوم الدِّين» صباح يوم جمعة خاطبه بصوتٍ حزين، قائلاً: أرجو أن تسمح لي أن أسألك سؤالاً

واضحاً وصريحاً، هل أنا حقاً وهابي؟ فردَّ الشيخ صالح على الفور: لا، لستَ بوهابي، ثم أردف مستغرباً: من قال لك ذلك؟ فحكى شعيب له الحكاية، فقال الشيخ محمد صالح: قم فائتني بالكتاب؟ فقام إلى كتاب «الطريقة المحمدية» للإمام البركوي، وقرأ له منه صفحاتٍ فيها التنفير من الرقص في الذِّكْر، والتحريم له. عندئذٍ التفتَ الشيخ صالح قائلاً لعبد الرزاق: طالبُ العلم شأنه أن يبحث في تفسير آيةٍ، في شرح حديثٍ، في حكم فقهي ليعلِّم الناس. وفهم عبد الرزاق إشارة شيخه، فامتنع منذ ذلك اليوم عن حضور هذه الحلقات من الذكر.

* * *

أما الحادثة الأخرى فكانت حين سأله أحد طلاب الجامعة وقتئذٍ ـ وكان صديقاً له ومن لِدَاته ـ عن تخريج حديث طُلِبَ منه أن يشرحه شرحاً أدبياً.

وغاص شعيبٌ في كتب الحديث ينقِّب عنه، حتى أعياه البحث، ثم وجده ذات يوم مصادفة في كتاب «الأربعون الوَدْعانية»، فخفَّ إلى صديقه، وبيَّن له أن هذا الحديث هو من الأحاديث الموضوعة، وابنُ وَدْعان هو من وضَعَه.

ولم يفرحه عثورُه على الحديث أخيراً، فقد استغرق البحث عنه وقتاً طويلاً، ولم يجده إلا مصادفة، وانتابه إحساسٌ ممضٌّ، لقد قصَّر في تعلُّم هذا العلم الشَّريف، ولا بدَّ من استدراك ما فاته.

وفي الجامع الأموي عقب صلاة المغرب جلس شعيبٌ يدعو الله عزوجل أن يوفقه لتعلُّم حديث رسول الله ﷺ، وأن يتعرَّف إلى صحيحه وضعيفه وموضوعه، ثم راح يردِّدُ بلسان لاهجٍ، وقلب خاشع قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[1].

❑❑❑

---

(١) سورة الأعلى: الآية ٦.

[٣]

ولما رأى الشيخ محمد صالح فرفور انكبابَ شعيب على الدرس اختاره والشيخ محمد أديب الكلاس ليتفرَّغا لطلب العلم، فترك شعيبٌ العملَ في محل أديب الطَّواشي، وكذلك ترك أديب العمل في تكليس حيطان البيوت، وخصَّص الشيخ صالح لكلٍّ منهما راتباً شهرياً يكفيه، وغرفة في جامع فتحي، ووضع لهما برنامجاً للقراءة والدَّرْس، قائلاً لهما: تفقَّها في الشريعة، لأنني بعد زمن قصير سأفتتح معهداً للتعليم الشرعي، وستكونان ـ إن شاء الله ـ من طلائع مدرِّسيه.

فكانا في كلِّ يوم يحفظان عن ظهر قلب آياتٍ من القرآن الكريم، ثم بعد ذلك يعكفان على القراءة، وكانا يقرأان فيما يقرأان «حاشية الطَّحْطاوي على مراقي الفلاح» في الفقه الحنفي، وكتباً في العقيدة.

وتكريماً لشعيب، ولِمَا بلغه من منزلة في العلم عمَّمه الشيخ صالح بالعِمامة البيضاء على طربوش أحمر، وألبسه الجُبَّة، وهما شعار أهل العلم بالشَّام.

* * *

وتمضي بهما الأيام، وهما في غرفتهما في جامع فتحي، يقرأان ويَدْرُسان، وأحياناً في أيام الرَّبيع يروِّحان عن نفسيهما بالتنزه في غوطة دمشق، يتنسَّمان هواءها العليل، ويتبادلان الآراء والأفكار، ويتطارحان مسائلَ من أبواب الفِقْه، شَحْذاً للذاكرة، وتعميقاً للفهم، وكان يتبدَّى لشعيب كلَّ يوم، اختلافُ تفكيره عن تفكير زميله الشيخ أديب، وقد أوضح له نقاشٌ دار بينهما ذات يوم مدى البَوْن الذي يباعد بين تفكيريهما.

فقد مرَّا في «حاشية الطَّحْطاوي» على فَصْل في صلاة التراويح، وكان الطَّحْطاوي قد نقل عن الكمال بن الهُمام في كتابه «الفتح القدير» ما يفهم منه أن الرَّكعات الثماني سُنَّة، وبقية العشرين على الاستحباب، فانشرحَ صدر شعيب لهذا الرأي، فالتفتَ إلى الشَّيخ أديب قائلاً له: هذا رأي معقول، لأن الركعاتِ الثمانيةَ الأولى هي التي اقتصر عليها النبيُّ ﷺ، وأما البقية فمُسْتحبة لأن النبي ﷺ قال: «**عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين من بعدي**»، فأُعطيتْ المرتبة الثانية، لأنها سُنَّة الخلفاء.

وراح شعيبٌ يُثني على فهم الكمال بن الهُمام، ويميل إلى ترجيح هذا القول على من قال: إنها في العشرين سُنَّة مؤكدة، وهو قولُ أبي حنيفة صاحب المذهب، ثم أردف قائلاً: الكمال بن الهُمام رجلٌ عظيم حقاً، فقد عمل بالسُّنَّة، وعمل بالمُسْتحب.

شعر أديبٌ، وهو يسمع كلام شعيب، أن لهجةً غير مألوفة تطرق سَمْعَه أول مرَّة، فهو لم يعتد مناقشة الآراء، بل حِفْظها، ولا يرى السَّلامة إلا في التمسُّك بأقوال الإمام أبي حنيفة دون غيره، فالتفتَ إلى شعيب بوجهٍ اعتراه غضبٌ وخوف، قائلاً: أحذِّرك يا شعيب من هذا المَزْلق الخَطِر، أنا أخاف في قادم الإيام إن سرتَ في طريق ترجيح الأقوال أن تخرج على مذهب أبي حنيفة.

واستحضر شعيبٌ، وهو يسمع ما يقوله أديبٌ، ألفاظاً لهم يتداولونها في جامع فتحي حين يستعرضون مسألة من المسائل، فيقول أحدهم: هذا ما خطر في ذهني الفاتر، ويردُّ عليه آخر: هذا ما يقوله الفقير خويدم العلم. بل إنه رآهم يكتبون في دفاترهم عبارات، مثل: وكتبه أحقرُ الورى وأضعف مَنْ ترى. هذه العبارات وأشباهُها تضرب على طالب العلم ذلَّ المَسْكنة، ولا تدفع به إلى أمداء العلم وآفاقه، وبدأ يستقرُّ في عقله أن الطريق الذي يسير فيه أديبٌ ورفاقه لا يفضي إلى رحابة الفِقْه ومقاصده، فأخذ نفسه بالمطالعة.

* * *

كانت دمشق في مطلع الخمسينيات تفتح أعينها بعد سُبات على كتبٍ إسلامية ذات منهج جديد، وفدت عليها مع تكوين الحركة الإسلامية فيها بقيادة الشيخ مصطفى السِّباعي، فكنت ترى في المكتبات ـ على قِلَّتها ـ رسائلَ البنَّا، وأبي الأعلى المودودي، وأبي الحسن النَّدْوي، وكان مشايخ دمشق في منأى عن هذه

الرَّسائل، وقد وجد فيها شعيبٌ ضالته، فراح يقتنيها، ويقرؤها بِنَهَمٍ في غرفته في جامع فتحي، وقادته هذه الرَّسائل إلى كتب جمال الدِّين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، فاطَّلع من خلالها على جانبٍ من الثقافة الإسلامية المعاصرة لم يطَّلع عليها أحدٌ من أقرانه.

واكتشف من خلالها فيما اكتشف أنَّ طالب العلم في المسجد لا تأثير له في المجتمع من حوله، فهو قابعٌ في غرفته يخزِّن المعلومات في ذهنه، ثم لا يفيد منها في تغيير فكرٍ أو سلوك، حتى في مجال التأليف في العلوم الشرعية لم يكن يصادف رغبة عند مشايخه فيه، وكثيراً ما كان يسمع شيخه صالحاً يردد بيت زهير بن أبي سلمى ـ إن صحَّ له ـ:

ما أُرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من قولنا مكرورا

فحسبهم من العلم كتابٌ يقرؤونه، لا يحيدون فيه عن فكر المؤلف وعباراته، وحسبهم من الزُّهد والتصوف الانزواء في المساجد بعيداً عن شؤون الناس في حياتهم اليومية.

وبدأت مع الأيام تندُّ عنه كلماتٌ ناقدة تعبِّر عمَّا يفكر فيه، هي كلماتٌ خجولة، تنتقد خُطَب الجمعة، وبُعْدها عن معالجة الأوضاع السَّائدة.

وأشد ما كان يثير استغرابه هو سكوتُ العلماء عن البدع الفاشية في المجتمع، ولا سيما بدع الجنائز، فكان يعجب حقًّا،

وهو يرى المشايخ يمشون خلفها، ولا ينكرون بِدَعها، حتى بات يعتقد أن الفقه ميتٌ في المجتمع، ولا حياة له إلا في الكتب.

* * *

وحانت له لحظة مواتية ليمتحن أفكاره حين أرسله الشيخ صالح إلى جامع السَّادات في حي مسجد الأقصاب ليدرِّس فيه الفقه عقب صلاة العصر من كل يوم.

كانت حلقة دَرْسه تضمُّ رجالاً كبار السِّنِّ، تجاوز بعضهم الخمسين من عمره، إذ إن الشباب من أمثاله لم يكونوا يرتادون المساجد في تلك الأيام.

وكان شعيبٌ يستفيض في شرح دَرْسه، وأحياناً كان يخرج عمَّا في الكتاب الذي يقرؤه، ويحدِّثهم عن المشكلات التي تثيرها تساؤلات عن وضع الأمة الإسلامية وتخلُّفها، وشيئاً فشيئاً أصبح يربط الفقه بهذه الأفكار، وبدأ الناس يسمعون منه كلاماً جديداً يحرِّك السَّاكن من تفكيرهم.

وفي أعماقه هو راحت تنمو على مهل بذورُ التململ من هذا الواقع الجامد بألوانه وصوره.

ولتعميق أفكاره أكبَّ على قراءة كتب الفقه، والبحث في أدلته حتى اشتهر بين الطلبة بذلك، وأكثر ما استهواه منها كتب علم الخلاف، أو مايسمَّى الآن بالفقه المقارن، فكان يخرِّج أحاديث الأحكام، ويقارن بين أقوال الفقهاء على هَدْيها، ويختار

القول الذي يبدو له أنه الأقربُ إلى الصَّواب، وقد وجد في رحابة الفقه وتعدُّد الأقوال بين الفقهاء في المسألة الواحدة سَعَة حقائق الإسلام في كُلِّياته ومقاصده.

واستشعر في نفسه من الشجاعة ما دفعه إلى الجهر بآرائه الفقهية والثقافية، حتى عُرف بين أقرانه أنه لا يسير سيرتَهم، ثم صار يدعو بعضَ أصدقائه إلى قراءاته، حتى إنه اشترى لأحدهم كتاب «نيل الأوطار» للشَّوْكاني، وهو في أدلة الفقه الحنبلي. ومرَّة أُعْجِبَ أحدُهم بكتابٍ من كتبه هو «الرَّوضة الندية» لصدِّيق حسن خان، شرح فيه «الدُّرر البهية في المسائل الفقهية» للشوكاني، وكان الشوكاني قد جمع فيه المسائل التي صحَّ دليلُها.

كانت كلماته وأخباره تُنمى للشَّيخ صالح، فيغضُّ الطَّرْف عنها أحياناً، وأحياناً يعاتبه، وكثيراً ما كان يدعوه إلى بيته لتناول العَشاء معه، محاولاً إقناعه بالعدول عن آرائه، راغباً إليه أن يقتصر في قراءاته على كتب المذهب الحنفي، وأن يقلع عن قراءة كتب جمال الدِّين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، هؤلاء المغموزون في عقيدتهم وانتمائهم، آملاً أن يستجيب هذا الطالب النَّجيب يوماً إلى منهجه.

وبرغم هذه التبدُّلات التي كانت تطرأ على تفكيره بقي قلبُ شعيب عامراً بالحبِّ لشيخه صالح، وكان شيخه يبادله حباً بحب، وقد جاشت عواطفُ شعيب بهذا الحب وهو يودِّع شيخه في مطار

المِزَّة، في طريقه للحج، فوقف بين الجموع المحتشدة لوداعه، يصدح بقصيدة نظمها، يقول في مطلعها:

يـا راحـلـيـن إلـى رُبـى عـرفـاتِ ... مستمطرين سحائبَ الرَّحماتِ
مـهـلاً فـجلّق أصبحتْ مبهوتةً ... مُـذْ بِـنْـتُـمُ يـا خـيـرةَ الـسَّـاداتِ
والمسجدُ المحزونُ باتَ لفقدكُمْ ... قـيـذ الـجـوانـح واكفَ العبَراتِ
مـا كـنـتُ قـبـل الـيـوم أعـلـم أنَّـه ... شطُّ الحبائبِ أفدحُ النكَباتِ

❑❑❑

[٤]

وغدا شعيب محطَّ أنظار الطلبة، وخاصة في درس حاشية ابن عابدين، فحين كان يُطلب منه أحياناً تقرير مسألة من مسائله يستعرض دليلها من الكتاب والسُّنَّة، وكثيراً ما كان شيخه صالح يقاطعه معاتباً، وهو يقول له: نحن ما عندنا هذا الفن، ولا نريد أن يكون في درسنا هذا. وربما أتبع عتابه بكلمةٍ جارحة، فجَفَل معظم الطلبة من هذا المنهج الجديد، وبعضهم آثر السَّلامة، واعتصم بالصَّمْت، وإن كانت الرغبة في معرفة الأدلة تتقد في داخله، فصار يهتبل أية فرصة لسؤال شعيب عنها.

وذات يوم، بينا كان الطلبة في انتظار شيخهم يتذاكرون الدرس قبل البدء به، سأل أحدهم شعيباً: ما الدليل على أن المصلي إذا صلى الفجر، وطلعتِ الشمس في الركعة الثانية أن صلاته تبطل عند أبي حنيفة؟

فأجابه شعيبٌ بثقة الفاهم، قائلاً: في صحيحي البخاري ومسلم وَرَدَ حديث أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «**من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشَّمس فقد أدرك الصُّبح**». هذا الحديث الصحيح أخذ به الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد،

وأما أبو حنيفة فلم يأخذ به، وإنما أخذ بشطره الثاني، إذ إن تتمة الحديث: **«ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر»**.

فتساءل الطالب: ولِمَ لم يأخذ به؟

قال شعيب: ربما لم يبلغه الحديث، وربما بلغه بيد أنه أعْمَلَ القياس في هذه المسألة، باعتبار أنَّ وقت الصلاة وقتٌ كامل، وحين طلعت الشمس صار الوقت ناقصاً، لورود النهي عن الصلاة في هذا الوقت، والكامل لا يتأدَّى بالناقص، فلما طرأ الناقص على الكامل أبطله.

وبينا شعيب يستفيض في شرح الدليل دخل الشَّيخ صالح غرفة الدرس، فتناهى إلى سمعه طرفٌ من جوابه، فحدَّق في شعيب، وهو يحاول كبت غيظه قائلاً: لماذا تتكلم بمثل هذا؟ فردَّ شعيبٌ: هو سألني، وأنا أوضحتُ له هذه المسألة، ولستُ في مجال ترجيح قولٍ على قول. فقال الشيخ صالح بلهجةٍ حازمة: هذا لا يجوز، فالاجتهادُ ممنوع. فقال شعيب: أنا لست مجتهداً، وإنما أقرِّر مسألةً اجتهد فيها الأئمة، فأنا ناقلٌ لاجتهادهم، ثم إني لا أقصد بكلامي هذا أن يتحوَّل هؤلاء الطلاب في هذه المسألة من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الأئمة الثلاثة، وإنما أبيّن كيفية الاستدلال فحسب.

ولم يستتمَّ شعيبٌ كلامه حتى انفجر غضب الشيخ صالح، قائلاً بصوت عال أدخل الرُّعب في قلوب سامعيه: هذا اجتهاد، والاجتهاد لا يجوز، علينا أن نُبْقي ما كان على ما كان.

ثم روى بصوتٍ متهدِّج حكايةً عن فقيه كبير، سكن دمشق، وتوفِّي بها في العقد الأول من القرن العشرين، هو الشيخ عبد الحكيم الأفغاني ـ وما إخالها تصحُّ عنه ـ أن أحد الطلبة جاءه سائلاً في مسألة في الفقه، فقال له الشيخ عبد الحكيم: قولُ أبي حنيفة فيها كذا وكذا، وقول صاحبيه كذا وكذا، فقال له السَّائل: أرى أن يكون جوابها غير ما قاله أبو حنيفة. فغضب الشيخ عبد الحكيم، وقال: اجعل رأيك خلف ظهرك!

وسكت الشيخ صالح، وساد الغرفة صمتٌ ثقيل، وأطرق الطلبة رؤوسهم، وهم يحدِّثون أنفسهم بالكفِّ عن طلب الدليل كيلا يثيروا غضب الشيخ.

* * *

هذه الحادثة زادت من جُرْأة شعيب، فكان حين يخلو إلى أقرانه من الطلاب يقول لهم: المذهب الحنفي لا يقرُّ هذا القول، فهو كسائر المذاهب، ينشأ فيه الإنسان مقلداً، ثم إذا تخصَّص فيه يصير متَّبِعاً، ثم إذا استطاع أن يتخلص من التقليد والاتباع يصير مجتهداً، مجتهد مسألة على الأقل، أو مجتهداً في المسائل المستجدَّة في حياتنا، والتي لا بد أن يبتَّ فيها برأي.

ثم إن هذا العلم الذي نتعلمه، ألا يولِّد فينا مع الزمن مَلَكة فقهية تؤهلنا لأن نستنبط حكماً جديداً في المسائل المستجدة؟ اقرؤوا شرح ابن عابدين لمنظومته المسماة بعقود رسم المفتي، فإنه يقول فيها: إن كان المفتي مجتهداً ينظر في الدليل، فيفتي بما يظهر له، ولا يتعين عليه قول الإمام، فالعبرة بقوة الدليل، وينقل عن الكمال بن الهُمام قوله: لا يُعدل عن قول الإمام إلا لضعف دليله. فهم كانوا يقولون بالترجيح، ولا يحجِّرون واسعاً.

ويتشاغل أكثر الطلبة عن سماع كلامه، إذ باتوا يعتقدون ـ كما يعتقد شيخهم ـ أن قراءة الحديث للتبرُّك به، لا لاستنباط الأحكام منه، ألم يسمع شيخه صالحاً يقول مراراً: هاتوا «صحيح مسلم» كي نتبرَّك بقراءته؟

* * *

وقد تركت هذه الحادثة كذلك فتوراً في العلاقة بينه وبين شيخه، خاصة وأن الشيخ صالحاً ما فتئ يردِّدها على مسامع طلابه، تنفيراً لهم عمَّا يشابهها.

وباتت أجوبة شعيب في الدرس تثير استياءه مهما يكن نوعها، فقد سُئل الشيخ صالح ذات يوم عن رجل صلى في جوف الكعبة المشرَّفة، مقتدياً بإمام خارجها، هل تصحُّ صلاته؟ فأجاب الشيخ صالح: لا أعرف الجواب. فانبرى شعيبٌ قائلاً: أنا أعرف الجواب. فالتفت إليه الشيخ صالح والغضب المكبوت يعكر أساريره، قائلاً له: وما الذي تعرفه؟ قال شعيب: أعرف أنه يصح

الاقتداء إلا في حالة واحدة، إذا صار الإمام قُبالته وجهاً لوجه، أما إن كان في أية ناحية من النواحي؛ فالاقتداء صحيح. فقال له الشيخ صالح بتحد: ومن أين لك هذا القول؟ فردَّ شعيب: من حاشية ابن عابدين. وكان قد قرأ هذه المسألة فيه، فقال الشيخ صالح: قم وأحضرِ الكتاب. فنهض شعيب، واستلَّ الكتاب من مكانه في المكتبة، وأشار إلى موضعها. فقرأها الشيخ صالح، والانزعاج بادٍ على محيَّاه، ثم نظر إلى شعيب نظرة مؤنبة، كأنه يقول له: كان عليك أن تسكت بحضرتي، وإن كنت تعرف الجواب، كان عليك أن تتأدَّب بحضرة شيخك.

وفي المساء دعاه الشيخ صالح إلى بيته ليتناول معه طعام العَشاء.

❏❏❏

[٥]

في نحو سنة ١٩٥٢م/ ١٣٧١هـ وفى الشيخ صالح بما وعد به، وأسَّس معهد الفتح الإسلامي، وجعل مقرَّه في جامع فتحي[١]، وكان مشروعاً رائداً حقاً، اعتمد في تمويله على أثرياء تجار دمشق، ووسَّد التعليم فيه إلى تلميذيه النجيبين: محمد أديب الكلاس، وشعيب الأرنؤوط، ثم ضَمَّ إليهما فيما بعد تلميذه عبد الرزاق الحلبي.

ولم يتجاوز عدد طلابه العشرين طالباً، غالبيتهم من الأتراك، الذين وجدوا فيه موئلاً للتعليم الشرعي بعد أن سُدَّت آفاقه في تركية الكمالية، فكان الأتراك يرسلون أبناءهم إليه، متجشمين مخاطر الطريق، وخوف الاعتقال.

وابتدأ المعهد تعليمه على طريقة الحلقات في المسجد، ثم تطورت هذه الحلقات إلى صفوف.

وقُسمت مراحل التعليم فيه مع ازدياد عدد الطلاب إلى أربع سنوات، تبدأ المرحلة الأولى فيه بتدريس كتاب «قواعد اللغة

(١) ثم سُجِّل وأشهر رسميًّا عام ١٩٥٦م/ ١٣٧٥هـ، وفي تلك السنة انتقل المعهد إلى بيت في حارة الشطي في القيمرية.

العربية» لمصطفى طموم ورفاقه، ثم «البلاغة الواضحة» لعلي الجارم، ومصطفى أمين، ثم «شرح ألفية ابن مالك» لابن عقيل، ثم كتاب «الصِّناعتين» لأبي هلال العسكري، و«تاريخ الأدب العربي» لأحمد حسن الزيات، وفي العقيدة كتاب «عقائد النَّسَفي»، ثم «حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد»، وفي الفقه كتاب «الاختيار تعليل المختار»، وفي التفسير «تفسير النَّسَفي».

ومع كلٍّ سنة من هذه السنوات الأربع يُقرأ على الطلاب قسمٌ من هذه الكتب، وكان الطلبة ينامون في غُرَف في عدة مساجد في دمشق، هيأها لهم المعهد، ثم يأتون إليه في الصَّباح.

* * *

كان شعيب في الرَّابعة والعشرين من عمره، وقد وكل إليه تعليم العقيدة، فكان يبذل جهده في تفهيم الطلاب أسس العقيدة الإسلامية، وهو منذ توسَّعت مداركه في النظر في كتب العلماء على اختلاف مذاهبهم، صارت عنده استقلالية في التفكير تدعوه إلى الأخذ من آراء العلماء بما يراه يوافق الكتاب والسُّنَّة، والاجتهاد الصحيح.

وقد وقف مرة، وهو يدرِّس حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد المسماة «تحفة المريد» على مبحث القضاء والقدر، وقرأ ما نظم اللقاني في الجوهرة:

وعندنا للعبد كسب كُلِّفا ... ولم يكن مؤثراً فلتعرفا
فليس مجبوراً ولا اختياراً ... وليس كلاً يفعل اختيارا

فإن يثبنا فبمحض الفضل   وإن يعذب فبمحض العدل

وقد علَّق الباجوري على الأبيات بقوله: وبالجملة فليس للعبد تأثير ما، فهو مجبورٌ باطناً، مختار ظاهراً.

فرجع شعيب إلى الآيات القرآنية في هذا المبحث فوجدها تنطق على خلاف ما ذهب إليه الباجوري في شرحه، ومن قبله اللقاني في نظمه، وأول ما لفت نظره أن التكليف في القرآن الكريم على قدر الاستطاعة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾(1)، فالإنسان لم يكلَّف فوق طاقته، وما لا يستطيع القيام به، وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى لم يجبر الإنسان على الكفر، إذ لو كان أجبره عليه، فكيف يستطيع التخلص منه؟ فهو تكليف ما لا يطاق.

ثم إن الآيات المطلقة المُوهمة أن الإنسان لا يتصرَّف باختياره، هي مقيدةٌ بآيات أخرى تفيد الاختيار، فقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾(2) قد جاءت مقيدة بقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾(3)، وحَمْلُ المطلق على المقيَّد منهجٌ اتبعه علماء الأمة، سواء في الأحكام الفقهية وفي العقائد.

---

(1) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(2) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

(3) سورة البقرة: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

ومن ثَمَّ لم يقبل شعيب رأي الباجوري، فراح يبين للطلبة خَطَل هذا الرأي، وأنه غير مستند إلى الآيات القرآنية، ثم ضرب لهم مثالاً ليقرِّب ذلك إلى أفهامهم، فقال: عندما تؤدون الصلاة، هل تجدون أن ثمة قوةً قاهرة تحول بينكم وبين أدائها؟ هل يستوي رجلان، أحدهما صحيحُ الجسم معافى، وآخر مصابٌ برعشة في يده، لا يستطيع إيقافها؟ هل الإنسان المكلف يُشبه الرجل الصحيح أو المريض؟ فقالوا: بل الصَّحيح.

فقال: ثمة طريقان في الحياة: طريق الخير وطريق الشر، ولا ينفكُّ أحدٌ عن سلوك أحد الطريقين، والإنسان مخيَّرٌ بينهما، لأن التخيير يتنافى والإكراه، فالتخيير يحقق الإرادة، والإكراه ينفيها، وكذلك أفعال العباد فيها تخيير، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2].

ونُمي كلامه هذا إلى الشيخ عبد الرزاق الحلبي، فخفَّ إلى شيخه صالح يشكوه، ثم أخذ يشنِّع عليه، ويشيع بين الطلبة أن الشيخ شعيب الأرنؤوط معتزلي، مستفيداً من أن مذهب الاعتزال في قضية التكليف قريبٌ من هذا.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢) سورة الشمس: الآيتان ٧ ـ ٨.

واعترى شعيباً الغضب مما نُبز به، فقال يوماً لطلابه: قولوا للشيخ عبد الرزاق إن قولي من مذهب أهل السنة والجماعة، وهو لا يعرف المصادر التي تبحث فيه.

أما الشيخ صالح، فآثر الصَّمت، فهو لا يحب أن يعكر علاقته مع أستاذ محبَّب إلى الطلاب، ويُحسن إفادتهم وتدريسهم..

❑❑❑

[٦]

ويبدو أن تلك الشائعة لم تنفِّر الطلابَ منه، فأُطلقت عليه شائعة أخرى، هو منها بريء، قالوا: إنَّ علاقة تربطه مع الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني، وكان مشايخ دمشق شديدي النُّفْرة منه، فهو عندهم جاهلٌ مغرور، مغضوب الوالدين، يتطاول على الأئمة المجتهدين، وأيّ إنسان له صلة به تسقطه من أعينهم.

لم يبال شعيبٌ بهذه الاتهامات، واستمرَّ على جرأته في الإفصاح عن رأيه، دون تلعثم أو تردُّد، وقد بات الشيخ صالح يتأذى من هذه الجرأة التي يراها قد خرجت عن المسموح به ما بين الشيخ والمريد.

وقد فجرت جرأتُه يوماً غضب الشيخ صالح، فتخلى عنه حلمه الذي يتحلَّم به.

ففي درس التفسير مرَّت آية فيها ذكر الصَّواعق، فطفق الشيخ صالح يتحدث عن الصواعق، وممَّ تتكوَّن بأسلوب العلوم العصرية، وكان له إلمامٌ بها، فاعترض عليه في أثناء الدرس طالبٌ من الحبشة، قائلاً له: هذا الكلام غير صحيح، فهناك حديث في

«جامع الترمذي»: «أنَّ الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله، وصوته الذي نسمع هو زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أُمر».

فانفجر غضب الشيخ صالح على هذا الطالب، وشتمه، فانبرى شعيب للدفاع عن حق الطالب الحبشي في الحوار، قائلاً: لا يُرَدُّ الحديث بالصُّراخ والشتيمة، بل يردُّ حسب أصول علماء الحديث، فإما أن تحاول التوفيق بينه وبين ما تقول إن كان صحيحاً، وإما أن ترده بالضعف، وهو حقاً ضعيف، أما أن تلجأ إلى الغضب والعنف، فهذا غير لائق بالعلماء.

وهالتِ الشيخ صالحاً هذه الجرأة التي قاربت التطاول عليه، فالتفت إلى شعيب صارخاً في وجهه بكلام قاسٍ، فأخذت شعيباً حميةُ الشباب، فقال: أنا لم آتِ إليك لأسمع منك هذه الكلمات، أنا طالبُ علم، وأحاور النَّاس بالعلم..

ثم نهض من مجلسه، ذاهباً إلى جامع النَّاصرية.

كان شعيبٌ يدافع عن مبدأ حقِّ الحوار بغضِّ النظر عمن أصاب فيه أو أخطأ.

وفي نحو منتصف الليل جاءه بعض أصدقائه يخبرونه أن الشيخ صالحاً حزينٌ جداً لما جرى، وهو في غرفته يبكي، وحاولوا إقناعه بالعودة إلى جامع فتحي، وما زالوا به حتى لان لهم، وحين دخل على شيخه صالح هرع نحوه مقبِّلاً رأسه،فالتفت إليه الشيخ صالح

قائلاً: يا بني، أنا والله أفعل ذلك لمصلحتكم.. ثم طفق يغسل بطيِّب كلامه ما كان منه.

* * *

لم يعد جامع فتحي بعد تلك الحادثة المكان الذي يعبِّر فيه شعيب عن أفكاره وآرائه، إذ راح يبحث له عن ملاذات أخرى، فغدت له مجالس تضمُّه مع مثقفي الإخوان المسلمين من أمثال حسن عبيد، وأبي الخير العرقسوسي، في تلك اللقاءات كان شعيبٌ يطلق لأفكاره العِنان في حوار مفتوح، لا تحرُّج فيه ولا حدود، وقد وجد فيه الإخوان ما لم يجدوه في المشايخ من عقل متفتح، وثقافة واسعة..

وقد استقطب حوله بعضَ الشباب ـ دون معرفة الشيخ صالح ـ فصار يعقد لهم دروساً في بيوتهم على تباعدها، وممن كان يحضر دروسه عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف دقاق، وأخوه محيي الدِّين، وعزو فلاحة، وغيرهم.

❑❑❑

[٧]

أما أهم ملاذاته خارج جامع فتحي، فكانت في بيت المحامي صلاح الدِّين الشَّاش في القيمرية، حيث يجتمع فيه مع ثلة من أصدقائه بالشيخ تقي الدِّين النَّبْهاني.

كان الشيخ تقي الدِّين قد قدم دمشق في سنة ١٩٥٣م/ ١٣٧٢هـ بعد أن انقلب على الإخوان المسلمين، وأسَّس حزباً جديداً في العام الفائت، سمَّاه حزب التحرير الإسلامي، واستقال من عمله مدرِّساً في الكلية الإسلامية بعمَّان، ليتفرغ لنشر أفكاره حول الخلافة الإسلامية، وقد نشر في ذلك العام كتباً كان قد ألفها تخدم فكرته وتشرحها، منها «نظام الإسلام» و«نظام الحكم في الإسلام» و«النظام الاقتصادي في الإسلام» و«النظام الاجتماعي في الإسلام» و«الدولة الإسلامية»، بل إنه كتب دستوراً لهذه الدولة.

واتخذ في دمشق من بيت المحامي صلاح الدِّين الشاش ـ وهو في ميوله الإسلامية قريب من الشيخ تقي الدِّين ـ مكاناً لنشر أفكاره، مستفيداً مما كانت تنعم به دمشق في ذلك الوقت من حرية سياسية إلى حدٍ ما.

وكان يحضر دروسه مع شعيب صديقه الأثير عبد القادر الأرنؤوط، وحسن عبيد، ووهبي سليمان الغاوجي، وآخرون، وفي تلك الدروس تعرف إلى الأستاذ عبد المنعم أبو اللبن؛ المدرِّس في المعهد العربي الإسلامي، وانعقدت بينهما صداقة متينة.

واكتشف شعيبٌ أن أفكار تقي الدِّين مستقاة مما كتبه الشيخ محمد عبده، والمودودي، وغيرهم، غير أن هذه الأفكار اكتسبت عنده دقة وضبطاً، فهو قد جمع أشتات ما قالوه، وعرضه على صعيد واحد.

وكان تقي الدِّين مستغرقاً في القضايا السياسية، لا يلتفت إلى أهمية تربية الفرد في المجتمع، وقد وضع نُصْب عينيه هدفاً واضحاً لا يحيد عنه، هو إقامة الخلافة الإسلامية.

وقد رأى فيه شعيب شخصية مقنعة في كثير من أفكاره، فهو فقيه من طراز فريد، يريد أن ينزِّل الفقه إلى الواقع، بيد أن كل إنسان في أفكاره ما يحتمل الصَّواب والخطأ، فكان شعيبٌ يحاول أن يناقشه في بعض تلك الأفكار، ويلفت نظره إلى أهمية تربية الفرد المسلم، لأن الدولة الإسلامية لا تقوم إلا على مسلمين، فقهوا الإسلام، وقاموا بأركانه، وتربَّوا بأخلاقه، فكان يراه يصمُّ أذنيه عن أي حوار، وكأنه قد وصل إلى قناعاتٍ ثابتة من الصعب زحزحته عنها، بل إنه كان يغادر البيت على الفور عقب انتهاء الدرس قاطعاً كلَّ حوار..

وقد بلغ من اعتداده بآرائه أنه كان عنيفاً في ردِّه على المخالفين

له، ولم يكن يعترف بجهود الجماعات الإسلامية الأخرى، ويرى أنها لم تقدِّم شيئاً للإسلام، ويصف المشايخ والإخوان المسلمين بأنهم قومٌ لا يفقهون.

هذا التشبث بالآراء والتعصُّب لها، هو ما كان يكرهه شعيب أشدَّ الكره، وينفر منه، ويراه علامة على التحجُّر والجمود الذي لا يتفق وجوهر الإسلام، فبدأ ينفضُّ عنه، بعد ملازمته له نحو سنتين، استفاد منه فيهما الانضباط في الوقت، والجِدَّ في البحث.

وظنَّ بعضُ الناس أن شعيباً أصبح تحريرياً، بيد أنه لم يفكر في حياته أن ينتسب إلى حزب، أو أن ينتظم في جماعة، ما كان يهمه حقاً هو الأفكار ومناقشتها وامتحان قدرتها على الإقناع، محاولاً من وراء ذلك كله امتلاك عقلية نقدية، تعطي لكلٍّ ذي حق حقه، مهما تعددت الآراء واختلفت، فكثيراً ما كان يمتدح كتاباً قرأه، فيظن بعض الناس أنه على مذهب كاتبه، وكثيراً ما كان يستشهد بقول كاتب يُعدُّ منحرفاً عن الإسلام، غير أنه أصاب الحق بهذا القول، فينسب إلى انحرافه، كان يبحث عن الصواب أنَّى ثَقِفَه، والناس في كل عصر لا يعذرون، إما أن تكون معهم أو ضدهم، وليس ثمة منزلة بين هاتين المنزلتين..

ويمضي شعيب في طريقه مجاهراً بآرائه، غير مبالٍ بمن يغضب عليه مرَّة، أو يرضى عنه أخرى.

❑❑❑

[٨]

وبوحي مما كان يقرؤه من كتب البنَّا، والمودودي ومحمد رشيد رضا، وبوحي من مجالسه مع الشيخ تقي الدِّين النَّبْهاني، فكَّر شعيب أن يخطو خطوة أوسع في مجال عمله الإسلامي، وهو أن يجمع مشايخ دمشق ـ وقد رآهم متنابذين متفرِّقين ـ على كلمة جامعةٍ ليكون لهم تأثيرٌ فيما يقع في المجتمع من أحداث.

وقد كان للإخوان المسلمين بقيادة الشيخ مصطفى السِّباعي مثل هذا التأثير، بيد أن حركتهم لم تعجبه، لأنها أحدثت قطيعةً بينها وبين المشايخ، وكانت تنظر إليهم باستخفاف، ومن ثَمَّ حاول أن يستميل بعضهم إلى فكرته، عساه أن يعيد مدَّ الجسور بين الاتجاهين.

وكان لرابطة العلماء أن تقوم بما كان يطمح إليه، غير أنه رأى رئيسها الشيخ أبا الخير الميداني ـ على علمه وصلاحه وتقواه ـ يفتقر إلى صفات القيادة، وقد انفرد نائبه الشيخ مكي الكتاني بقراراتها.

وأفضى شعيبٌ بفكرته هذه إلى أصدقائه المقرَّبين: عبد القادر الأرنؤوط، ووهبي سليمان الغاوجي، فحبذا هذه الفكرة، ثم ضمَّ

إليهما صديقه أبا الخير العرقسوسي، وهو من الإخوان، فقرروا أن يفاتحوا المشايخ بما عزموا عليه.

فاجتمعوا بكل واحد منهم على انفراد، فكان يحبذ فكرتهم على الفور، غير أنه يقول مستدركاً: ينبغي أن تصدر هذه الفكرة عن الكبار لا عنكم. فكانوا يجيبونه بحماسة الشباب: قوموا أنتم بهذا، ونحن جنود أوفياء لكم. وحده الشيخ عبد الكريم الرِّفاعي الذي شجعهم، وشدَّ على أيديهم، وقال: أنا معكم. وضمَّ إليهم تلميذه القاضي أحمد عيد.

أما الشيخ صالح فرفور، فلم يكن متفائلاً بنجاح هذه الفكرة، وكان يقول لشعيب: لن تصل إلى غايةٍ في مسعاك هذا، لقد سلكتُ الطريق قبلك حين شاركتُ في تأسيس جمعية العلماء، فوجدته مغلقاً بإحكام.

وليضمن شعيب لفكرته النَّجاح قرَّر أن ينتقي من تلاميذ كل شيخ اثنين من قدماء طلابه، وأقربهم إليه، ليجتمعوا مرة في كل أسبوع، عسى أن يكون في هذه اللقاءات ما يقرِّب العقول والقلوب.

واستمرَّ شعيبٌ يدأب على تحقيق فكرته هذه نحو سنتين اكتشف خلالهما أنه يضرب في حديد بارد، فانكفأ على نفسه يائساً من أن يكون ذات يوم للمشايخ كلمةٌ جامعة.

❑ ❑ ❑

[٩]

وفي غمرة انشغالاته خارج جامع فتحي راح يتخلف عن حضور دروس الشيخ صالح التي لم يعد ينشدُّ إليها، وتنبَّه الشيخ صالح إلى غيابه عنها.

كانت الأفكار التي قرأها لجمال الدِّين الأفغاني ومحمد عبده وحسن البنا ومحمد رشيد رضا، ثم ما قرأه للشيخ مصطفى السِّباعي وما سمعه من خُطَبه، وما قرأه لتقي الدِّين النبهاني ومحمد المبارك قد كوَّنت عنده منهجاً في التفكير يختلف عن منهج شيخه صالح.. ثم فاقم من هذا الاختلاف تردُّدُه إلى الشيخ عبد الله الحبشي، وملازمته له الساعات الطويلة.

وحاول الشيخ صالح استعادة تلميذه النَّائي، وذلك بزحزحته عن أفكاره الجديدة، واتَّبع معه أسلوب التحبُّب والإكرام، فما أكثر الأيام التي كان يدعوه فيها إلى بيته ليتناول معه طعام العشاء، وكان أكثر ما يسوءه منه تردده إلى الشيخ عبد الله الحبشي برغم نهيه له عن زيارته.

وظل شعيبٌ على موقفه لا يتزحزح عنه، بل زاد في الابتعاد

عن شيخه خطوة، فلم يعد يقبِّل يده كما كان يفعل كلما التقاه، وكأنه بذلك يعبِّر عن بداية الانفصال عنه.

* * *

كان قد اتفق في عام ١٩٥٠م/ ١٣٦٩هـ أن جاء إلى دمشق قادماً من المدينة المنوَّرة شيخٌ من هَرَر، هو الشيخ عبد الله بن محمد بن يوسف، المعروف بالحبشي.

كان في نحو الأربعين من عمره، وقد أوتي ذكاء وحافظة ساعدته على استظهار القرآن الكريم، وهو في العاشرة، في أحد كتاتيب باب السَّلام في هرر.

ثم تعمَّق في دراسة الفقه الشافعي وأصوله ووجوه الخلاف فيه، ثم التفت إلى العناية بعلم الحديث الشَّريف، فحفظ الكتب الستة بأسانيدها، والتقى علماء الحديث في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وممن أجازه في المدينة عالمٌ هندي هو الشيخ المحدِّث محمد بن علي أعظم الصدِّيقي البكري، واجتمع فيها بالشيخ المحدِّث إبراهيم الخُتَّني.

ثم قدم دمشق لاستكمال علومه، وأَخْذِ قراءة حفص من شيخها المقرئ محمود فايز الدِّيرعطاني.

ورحَّبت به دمشق على عادتها في الترحيب بالغُرَباء، واهتمَّ به بعض رجالاتها من علماء وتجار، فأنزلوه مكرَّماً في غرفة في المدرسة الناصرية بالقيمرية، المعروفة عند العامة بمسجد القطاط،

وقد أمَّلوا منه أن يخلف في الحديث محدِّثها الأكبر الشيخ بدر الدِّين الحسني، فمنذ وفاته سنة ١٩٣٥م/ ١٣٥٤هـ خَلَت دمشق من محدِّثٍ كبير، ولعلهم يستنصرون به على ناصر الدِّين الألباني، هذا الشاب الأرنؤوطي الذي نبت فيهم، وادَّعى معرفة بعلم الحديث، واتخذه وسيلة للتهجم على علمائهم ومشايخهم وأسلافهم، جامعاً حوله شباباً يشايعونه على رأيه.

خفَّ شعيبٌ للقياه كي ينهل من معرفته الواسعة بعلم الحديث، وهو العلم الذي شغف به.

وكان الشيخ عبد الله الحبشي قد تردَّد إلى بيروت، وأخذ إجازة من شيخها المحدِّث محمد توفيق الهبري، وسمع منه بعضاً من «الأربعين العجلونية» بإسناده إلى مؤلفها الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني.

فرغب شعيب في قراءتها عليه، وإجازته بها، وكان ممن قرأها معه: عبد القادر الأرنؤوط، ومحمد أديب الكلاس، وعبد الرزاق الحلبي.

ثم رغب إليه أن يقرأ عليه الكتب الستة، وكان للشيخ عبد الله الحبشي إسنادٌ فيها إلى عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الدِّيْبع، وذلك في كتابه «تيسير الوصول» الذي هذّب فيه «جامع الأصول» لابن الأثير.

فقرأ عليه نحواً من مئة صفحة، وبينا هم يقرؤون عليه جاء

الأمر من الشيخ صالح بالتوقف عن القراءة على الشيخ عبد الله الحبشي، بل بالانفضاض عنه والانقطاع عن زيارته، وأمْرُ الشيخ واجبُ التنفيذ، فانفضُّوا عنه إلا ما كان من شعيب الذي رفض الانصياع لهذا الأمر، واستمرَّ في زيارته والقراءة عليه.

فكان شعيبٌ ما إن ينتهي من دروسه في معهد الفتح الإسلامي في جامع فتحي، حتى يخفَّ إليه في غرفته في مسجد القطاط، وما يقطع جلوسه إليه إلا الصلاة، وكان يذاكره في كل شيء، ولا سيما فيما يتعلق بأدلة الفقه الشافعي.

هذه الملازمة للشيخ عبد الله الحبشي[1]، وانقطاعه عن دروس شيخه صالح زادت من تفاقم الخلاف، وأدَّت لما أدَّت إليه.

❑❑❑

(١) بقي شعيب ملازماً له حتى نهاية سنة ١٩٥٨م/ ١٣٧٨هـ، ثم انقطع عنه، ولم يختلف معه خلالها إلا في تكفيره لابن تيمية، وهو ما لم يقرَّه شعيب عليه.

[١٠]

فقد ضاق أخيراً صَدْرُ الشيخ صالح بهذا الطالب العنيد، الذي يخالف أمره دائماً، وخاف إن غضَّ الطرف عنه أن يُفلت زمام سائر الطلبة من يده، فعزم على أمرٍ جمع له الطلاب ذات يوم من أيام شتاء ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ، ودعا شعيباً للحضور.

ولما تتامَّ الجمع خاطب الشيخ صالح شعيباً، قائلاً له بلهجة تأنيب: لِمَ لم تعد تحضر دروسي؟ واستُفز شعيب بهذا السؤال، وشعر كأنه في محكمة، فقال بحدة الشباب: يا أستاذ، لم يعد لديك ما أريده، ولهذا أنا أذهب إلى المشايخ الآخرين، آخذ ما عندهم، فلِمَ أنت منزعج؟ بُوغت الشيخ صالح بهذا الجواب القاسي، فقال بحزم: لا ينبغي لك أن تذهب إلى مشايخ آخرين، وأنا موجود. فقال شعيب: أنا آخذ منهم العلم الذي لا تحسنه أنت، فأنا أدرس علوم الحديث، وأقرأ الأفكار الإصلاحية، ثم إنك كنت تدعو إلى هذه الأفكار في يوم من الأيام مع الشيخ كامل القصَّاب في مجابهتك للاستعمار الفرنسي، ألم تقل في قصيدة نظمتها سنة ١٩٣٣م/ ١٣٥٢هـ:

إنَّ الحياة لآلامٌ وآمالُ وناشدُ العزِّ لا يعروه إهمالُ
ناديت قومي بأصواتٍ قد ارتعشت لها القلوبُ وفُكَّتْ ثَمَّ أوصالُ

إلى أن قلت:

لا تيأسوا وثقوا بالله واعتصموا فاليأس للقلب وآدٍ وقتَّالُ

أما كنت تدعو إلى الوحدة الإسلامية حين قلت:

لا أبتغي غارة شعواء طامية يذكي تأجُّجَها سيفٌ وعسَّالُ
بل أبتغي علم الإسلام منتشراً تحنو لهيبته شِيْبٌ وأطفالُ

وأنا الآن أدعو إلى ما كنت تدعو إليه.

ثم كيف تمنعني مِنْ أمرٍ أنت فعلته في صدر شبابك؟ ألم تذكر لنا شيوخك الذين تعلمتَ منهم: الشيخ بدر الدِّين الحسني، والشيخ صالح بن أسعد الحمصي، والشيخ محمد السَّاعاتي، ومفتي الشام الشيخ محمد عطاء الله الكسم، والشيخ محمد سليم الحلواني، وغيرهم كثير؟ فقال الشيخ صالح: نعم، أنا تعلمتُ من هؤلاء المشايخ، وعدَّدْتُ شيوخي لأنني أخذت عن كلٍّ واحد منهم العلم الذي برع فيه، أما أنا فقد اجتمعتْ عندي علومُهم كلُّها.. فقال شعيب: نعم، أنت تحسن علم العربية والتفسير والفقه، غير أنك في علم الحديث ضعيف، وليس لك فيه مشاركة قوية.

وكأنَّ الشيخ صالحاً أُحرج بهذه الأجوبة، فانتقل إلى موضوعٍ آخر، قائلاً له: نحن لا نوافقك على هذا المسلك الذي تسلكه، ففي العقيدة تخالف في بعضها مذهب الأشعرية، وتخالف في

بعضها الآخر مذهب الماتريدية، ثم إنك تعلن إنكارك على الصوفية، وتنتقدهم.

وأدرك شعيبٌ أن أمر بقائه عند الشيخ صالح قد حُسم، فإما أن يبقى وقد تخلى عن قناعاته كلها، وإما أن يرحل. وقد آثر الرَّحيل، فقال للشيخ صالح: كأنك في استجوابك لي تخيِّرني بين الإقامة والرحيل، وأنا اخترتُ الرحيل، ولكن قبل أن أغادر أريد أن أسألك: ما رأيك في عقيدتي؟ فقال الشيخ صالح: عقيدتك صحيحة، وأنت من أهل السُّنَّة والجماعة. فقال شعيب: وما رأيك في سلوكي وأخلاقي؟ فقال الشيخ صالح: ما عهدنا عليك من سوء، ولكنك عنيد، وتستبدُّ برأيك في بعض الأمور. قال شعيب: الحمد لله، وها أنا منصرفٌ منذ اليوم، ولن تراني بعده.

ونهض شعيبٌ إلى رفوف مكتبته، فجمع كتبه وأشياءه، وخرج من غرفته في جامع فتحي، مودِّعاً سبع سنين من عمره قضاها في رحابه.

❑❑❑

[١١]

واتخذ شعيب طريقه إلى جامع الدِّيوانية، حيث كان صديقه عبد القادر إماماً وخطيباً فيه، ولم يفكر في الذهاب إلى بيته، لأنه لا يريد أن يَعْلم والداه بما وقع له.

وقد خفَّ عبد القادر لاستقباله، وأنزله في غرفة فيه، وكان له نِعْمَ الصديق المواسي في تلك الأيام العصيبة، فلم يكن يفارقه إلا حين ذهابه إلى مدرسة الإسعاف الخيري في شارع البرلمان، حيث كان مدرِّساً فيها.

وكان عبد القادر قد سبقه إلى الانقطاع عن دروس الشيخ صالح بنحو ثمانية أشهر، بطريقة تختلف عن طريقة شعيب، فقد آثر عبد القادر السَّلامة، فلم يواجه شيخه بما واجهه به شعيب، بل راح يختلق المعاذير متعللاً بها عن تخلفه، من هذه المعاذير أعباؤه العائلية، وإمامته لصلاتي المغرب والعشاء في جامع الديوانية، وبُعْد الطريق.

* * *

ولم يكن لشعيب إلا راتبه الذي كان يتقاضاه من تدريسه في معهد الفتح الإسلامي، وقد انقطع الآن، فعاش في ضائقة مادية، اضطرته إلى بيع بعض كتبه ليقتات من ثمنها، وكان طعامه في ذلك الوقت الفول

المُدَمَّس، وهو من أرخص أنواع الطعام، وواجه برد شتاء دمشق القارس بملابس الصَّيف، وإن أخفاها تحت جُبَّةٍ من جوخ!

وحاول بعضُ أصحاب الشيخ صالح رأب الصَّدْع، فجاؤوا شعيباً، وقالوا له: إن وافقتَ الشيخ صالحاً على منهجه، فسيعطيك الرَّاتب الذي تريد. فكان جواب شعيب حاسماً: إن تكويني العقلي يأبى عليَّ أن أعمل مع من أختلف معه.

وبقي مقيماً في غرفته بجامع الديوانية لا يبرحها إلى بيته إلا في يوم الجمعة، ثم يغادره صباح السبت كدأبه حين كان في جامع فتحي.

* * *

ومرت الأيام، وهو على موقفه لا يتزحزح عنه، فلما يئسوا من إنابته أشاعوا عنه بأنه وهابي، ومتأثر بالشيخ ناصر الدِّين الألباني، ويلتقيه، وهم يعرفون حقاً بأنه ليس وهابياً، بل إنه يخالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويعلمون أنه في الفقه على مذهب أبي حنيفة، وإن كان يخالفه في بعض المسائل التي يرى الصَّواب فيها عند غيره من الأئمة.

ولما انتشرت عنه هذه القالة بدأ الناس بالانفضاض عنه، حتى بات إذا مرَّ في طريق لا يردُّ عليه السلام أحدٌ من معارفه، إلا ما كان من صديق له في جامع فتحي بقي على وداده له، هو الشيخ سعيد الطناطرة، فقد كان يتجرأ ويدعوه إلى بيته.

ولكلمة وهابي في الشَّام وقع سيئ على الأسماع، فما زالت تلقي بظلالها القاتمة على عقول أهله منذ أطلقها الأتراك على أتباع محمد بن عبد الوهاب، حين انفصلت نجد في جزيرة العرب عن الدولة العثمانية، وقد اعتقدوا أنهم هم المسلمون حقاً باتباعهم المذهب الحنبلي وآراء ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكانوا وصلوا في حروبهم إلى بُصرى في حوران سنة ١٨١٠م/ ١٢٢٥هـ، واختبطت دمشق خوفاً منهم، وقد باتوا بقربها، وانعكس هذا الخوفُ على قلم فقيهها ابن عابدين، فنعتهم في «حاشيته» بالخوارج، وناهيك عما في هذا اللفظ من معانٍ مرذولة عبر التاريخ الإسلامي، وقد بقي من صفات الوهَّابي في عقول العامة أنه لا يحبُّ النبي ﷺ.

فحين نُبز شعيبٌ بهذا اللقب هاله ذلك وأفزعه، وهبَّ إلى أحد وجهاء حي مسجد الأقصاب، وهو أبو عزُّو الشَّلاح، وشكا إليه ما يُلحقه هذا اللقب من الضَّرر بسمعته، وقال له: أنت لازمتَ درسي في جامع السَّادات سنين، فهل رأيتني يوماً لا أحبُّ النبي ﷺ؟ فقال له: معاذ الله، بل كنت في درسك تحببنا بالرسول ﷺ. فقال شعيب: إذن أنا لست وهابيًّا بالمعنى الذي ينعتني به هؤلاء، فأرجو أن تجمعني بمن يشيع عني هذه القالة حتى أرده إلى الصواب.

وسعى أبو عزو الشلاح إلى الشيخ صالح، ورغب إليه أن يجتمع بشعيب، بيد أن الشيخ صالحاً رفض الاجتماع به.

وبعد أيام حين التقاه شعيبٌ، قال له أبو عزو: لم يرض الاجتماع بك. فقال شعيب: ما العمل؟ فرد عليه أبو عزو بلهجته العامية: والله ما بعرف شو بدي أقول لك، لفّته أكبر مِن لفّتك، ودقنه أكبر من دقنك، وأنا احترت مَن أصدق منكما؟

ثم انصرف عنه، معلناً الانضمام إلى مقاطعيه، وكان أبو عزو ذات يوم من أخلص محبيه، بل إنه عرض عليه يوماً أن يزوجه إحدى بناته.

* * *

ويعود الشيخ شعيب بذاكرته إلى تلك السنين، وقد طوى من عمره الثمانين، فيرى أنه عامل شيخه بشدة لا تتفق وإحسانه إليه، فقد ربَّاه وعلمه، وأرشده وأكرمه، فكان عليه أن يعترف بفضله، وأن يترفق بالحوار معه، فبالحوار الهادئ تصل الأجيال ما ينقطع بينها، وتأتلف أناة الشيوخ، واندفاع الشباب.

وسيبقى للشيخ محمد صالح فرفور ـ فوق كلِّ خلاف ـ أثره في إصلاح الأمة، فهو من علماء دمشق النابهين، وسيبقى معهده الذي أنشأه؛ معهد الفتح الإسلامي، رائداً في نشر العلم الشرعي لا في دمشق فحسب، بل في العالم الإسلامي أجمع.

❑❑❑

في مُعْترك الحياة

[١]

لم تدم هذه الشدة وهذا الضيق الذي عاشه شعيب بعد انقطاعه عن جامع فتحي، فبعد نحو ستة أشهر، أي في منتصف عام ١٩٥٦م/ ١٣٧٥هـ، عُيِّن شعيب مدرِّساً في المعهد العربي الإسلامي، إثر استقالة الأستاذ عصام العطار من التدريس فيه، لمرضٍ ألَمَّ به، فأشار الأستاذ عبد المنعم أبو اللبن ـ وكان مدرس اللغة الانكليزية فيه، ومن أصحاب الشيخ تقي الدِّين النَّبْهاني، وتربطه بشعيب علاقة طيبة ـ أشار على مديره الأستاذ عبد الغني الباجقني في أن يحل شعيب مكانه، فعيِّن مدرساً للعربية في المرحلة الإعدادية.

وكان هذا المعهد قد تأسس بعد الجلاء ردًّا على المدارس التبشيرية، وكان يقع قبالة مبنى البرلمان.

وكان مديره الباجقني من أصل ليبي، وهو من ذلك الرَّعيل الأول من الأساتذة الكبار الذين قضوا جُلَّ حياتهم في التعليم، وكان على عادة المغاربة ملمًّا بالفقه المالكي، وحافظاً للقرآن الكريم على قراءة وَرْش، وله مهابة وجلال، بيد أن مظهره لا يشي بما ينطوي عليه من طيبة وخلق، فنظارته السوداء، وطربوشه الأحمر يشعرانك بالمهابة حقاً، أما مشيته فيخالها من لا يعرفه مشية متكبر.

وذات يوم، وبينا كان شعيب في غرفة الأساتذة، وقد انتهى من إلقاء درسه، دخل عليه الأستاذ الباجقني، فرآه يقرأ في كتاب، فسأله عن عنوانه، فقال له شعيب: إنه «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده، فظهرت على وجهه أماراتُ التعجب، شيخٌ مُعمَّم يقرأ لمحمد عبده؟ فسأله بارتياب: وما رأيك فيه؟ فقال شعيب: عالمٌ كبير، يُؤخذ من قوله ويترك حسب الضَّوابط الشرعية. فقال الأستاذ الباجقني مستفهماً: لا شك أنك لا تتهمه؟ فقال شعيب: معاذ الله، بل هو من كبار رجالات الإصلاح، ولكنه أخطأ في بعض المسائل.

واستحسن الأستاذ الباجقني أجوبته، فدعاه إلى غرفته في الإدارة، لاحتساء كأسٍ من الشَّاي.

وهكذا نشأت مودة عميقة بين شعيب الشَّاب، وكان في نحو الثامنة والعشرين من عمره، وبين الأستاذ الباجقني الكهل، وكان في نحو الثانية والستين من عمره، وقد أفضت هذه المودة إلى ما أفضت إليه من حوارات متشعبة في شؤون الثقافة الإسلامية، وسبيل النهوض بها، وكان من ثمرتها كذلك أن تخلى الأستاذ الباجقني عن كتب كثيرة في الفقه المالكي، واستعاض عنها بكتب في الفقه المقارن، هذا الفقه الذي يعشقه شعيب.

❑❑❑

[٢]

لم يستغرق المعهد وقته كله، فكان يقضي ما بعد ظهيرة كل يوم ـ حيث ينتهي دوامه ـ في جامع الدِّيوانية عند صديقه عبد القادر الأرنؤوط، أو يجلس إلى الشيخ عبد الله الحبشي في مسجد القطاط في القيمرية، وأحياناً كان يأوي إلى بيته، والذي يشغل ذهنه تلك التهمة التي اتُّهم بها بأنه وهابي، وأنه يتردَّد إلى الشيخ ناصر الدِّين الألباني.

كان الشيخ ناصر في ذلك الوقت قد غدت سيرته مُضْغَة في أفواه مشايخ دمشق، بعد أن أصدر كتبه المثيرة، ولا سيما كتابه «صفة صلاة النبي ﷺ»، الذي خرج فيه على المذاهب الفقهية، وادَّعى فيه دعوى كتبها على غلافه، وهي أن هذه الصلاة هي صلاة النبي ﷺ «من التكبير إلى التسليم كأنك تراها»، وفي ذلك إشارة إلى أن ما هو في كتب الفقه ليس من صفة صلاة النبي ﷺ، وهي عبارة فيها من الاستفزاز ومجافاة الحقيقة ما فيها.

حقًّا، كان شعيب يزوره أحياناً، ولكنها زياراتٌ قصيرة متباعدة مع الشيخ نوح نجاتي والد الشيخ ناصر، وكان يستشف في تلك الزيارات جفاف طبع الشيخ ناصر، فيزهِّده ذلك في زيارته وحده. .

إلى أن كان يومٌ خرج فيه شعيب من المعهد العربي الإسلامي كعادته، وشيء في صدره يدفعه إلى زيارته، وسؤال يلحُّ عليه طوال الطريق: لم لا يذهب إليه، ويتعرَّف ما عنده، قد يكون الرجل عالماً حقاً، وهؤلاء يتجنَّون عليه؟

وفي غمرة شروده ألفى نفسه واقفاً أمام محله لتصليح السَّاعات، قرب جامع الجوزة في العمارة البرَّانية، فدخل عليه مسلماً، فردَّ عليه الشيخ ناصر السلام، وهو منهمكٌ في إصلاح ساعة، وكان يعرفه، فدعاه للجلوس، وقادهما الحديث المتقطع عن الأهل والأسرة إلى علم الحديث، فثارت بينهما أسئلة وأجوبة، حاول فيها كلٌّ منهما أن يستكنه ما عند الآخر، حتى إذا ما انتهى اللقاء كان الأنس قد حلَّ بينهما محلَّ الجفاء.

ومنذ ذلك اليوم سيصبح محلُّ الشيخ ناصر هو المكان المفضَّل لشعيب، فما إن يخرج من المعهد العربي الإسلامي حتى يسعى لصلاة الظهر في جامع الجوزة، ثم يتخذ مكاناً له في محل الشيخ ناصر حتى يُؤَذَّن لصلاة العصر.

أما الصَّباح، فكان الشيخ ناصر يقضيه في المكتبة الظاهرية قرب الجامع الأموي، منقباً في كتبها ومخطوطاتها عن الأحاديث الضعيفة، وقد اكتشف أثرها السيئ في عبادة الأمة وعقيدتها، فجعل ديدنه التنبيه عليها، وكان في أوَّل أمره يلتقطها من أفواه الخطباء في أيام الجُمَع، وما أكثر الأحاديث الضعيفة التي تدور على ألسنتهم،

ثم صار ينقِّب عنها بين الكتب، مُفْرداً كلَّ حديث منها في ورقة يكتب فيها ما قيل في إسناده ومتنه، ثم يضمُّها إلى نظائرها، ويعلقها في مِشْبك خلف ظهره، ثم يرجع بعد الظُّهر إلى محله يتعيَّش منه، وفيه مكتبة حديثية قد جمعها ليعود إليها في أوقات فراغه.

وقد خطر لشعيب في تلك الأيام أن يخرِّج الأحاديث التي اعتمد عليها الشيخ تقي الدِّين النَّبْهاني في كتابه «الشخصية الإسلامية»، وما كان يتغياه من وراء ذلك هو الرد على الشيخ النبهاني، وتبيان أنه في أبحاثه يستشهد بأحاديث ضعيفة لا تصح.

ووجد شعيبٌ في مكتبة الشيخ ناصر في محله ضالته، إذ كان لقلة ذات يده لا يستطيع أن يجمع مكتبة مثلها، عامرة بكتب الحديث والرِّجال، فكان يتصفَّحها، ويطَّلع في هوامشها على تعليقات الشيخ ناصر، وأحياناً كان يقف على أخطاء في بعض هذه التعليقات، فينبه الشيخ ناصر عليها، فيأخذ منها ما يقتنع بصوابه.

وأحياناً كانت تجري بينهما حواراتٌ في بعض المسائل الفقهية، هي للمذاكرات العلمية أقرب، تبيَّن لشعيب خلالها ضعف الشيخ ناصر في العربية، وقلَّة اطلاعه على الفقه وكتبه، ولم يجد عنده تلك المَلَكة الفكرية التي تمكنه من استنباط الأحكام، كان جلّ ما تعيه ذاكرته تلك الفوائد التي يلتقطها من كتاب «فتح الباري» لابن حجر، ومن كتب ابن حزم.

وكان كثير التعويل في الفقه على كتابي «نيل الأوطار» للإمام الشوكاني، و«الروضة الندية» لصدِّيق حسن خان، ولهما مؤاخذاتٌ على بعض المذاهب الفقهية، وكان الشيخ ناصر مولعاً بهذه المؤاخذات، فهو يحاول دائماً تقويتها بالأدلة، وإذاعتها بين النَّاس.

❑ ❑ ❑

[٣]

وفي محل الشيخ ناصر الدِّين الألباني تعرَّف شعيب إلى الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ[1].

كان راتبٌ في نحو التاسعة والعشرين من عمره، أي يكبر شعيباً بسنة واحدة، وهو يحضِّر لدراسة الماجستير في جامعة القاهرة عن الشاعر الغَزِل ابن الدُّمَينة، وقد اشتهر بين أقرانه بنبوغه بالعربية.

لم يكن شعيبٌ يدري عنه شيئاً قبل هذا اللقاء الأول بينهما، وقد فوجئ به شعيب، وهو ينتقد في أحاديثه الكمال بن الهُمام، هذا العالم الجليل الذي يحبه شعيب ويقدِّره، فالتفت إليه شعيب مُغْضباً، وقال له: مَنْ أنت حتى تتكلم في الكمال بن الهُمام؟

ويبدو أنَّ راتباً فوجئ بردِّ شعيب عليه، غير أنَّه التزم الصَّمْت، وآثر أن يصغي لشعيب، وهو يصف الكمال بالعالم الحنفي المجتهد، ثم راح يعدِّد المسائل التي خالف فيها الكمال إمامه

(١) انظر مقالتي عن أستاذي العلامة أحمد راتب النفاخ في مجلة الفيصل، العدد ٢٩٥، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

أبا حنيفة، ثم أضاف: هو مجتهدٌ حقاً، ولو كنت تعرفه حقًّا لما قلت بحقه ما قلت.

ربما قسا شعيبٌ في ردِّه على راتب، وربما أحبَّ راتبٌ منه هذه القسوة التي تنمُّ عن الصَّراحة والصِّدْق، فأخذت خيوط صحبة ومودة تنسجها الأيام بينهما، فصارا يلتقيان، ويضمُّهما أحياناً الجامع الأموي برحابه الفسيح، فيتمشيان في باحته، ويتطارحان المسائل العلمية، وكلٌّ منهما يحترم رأي الآخر، حتى إنَّ راتباً ـ على ما عُرِفَ من نقده الشديد لأبي حنيفة ـ قد خفَّفَ من لهجته في نقده، ومما زاد من المودة بينهما إعجابهما بأبي الأعلى المودودي، وكان راتبٌ يشرف في ذلك الوقت على ترجمة كتابه «الحجاب».

* * *

وذات يوم، وبينما كان شعيبٌ جالساً في محل الشيخ ناصر، دخل رجلٌ يحمل رسالة من الأستاذ محمد أمين المِصْري، وفيها أسئلة يودُّ من الشيخ ناصر أن يجيبه عنها.

كان أمين المِصْري في لندن يحضر رسالة الدكتوراه، وموضوعها: «معايير النقد عند المحدِّثين» بعد أن رفض موضوعه الأول، وهو نقد شاخت؛ هذا المستشرق الألماني الذي تنكَّر للسُّنَّة النبوية في أبحاثه عن الإسلام.

قُرئت الرِّسالة على الشيخ ناصر، فشرع يردُّ على أسئلتها،

ويبدو أن بعض ردوده لم تلق استحساناً من شعيب، فالتفت إلى حامل الرسالة، وقال له: أنا أخالف الشيخ ناصر في بعض أجوبته. وأملى عليه جوابه فيها، فكتب الرجل إجابات شعيب، وذيَّلها باسمه.

وتوالت الرَّسائل من الأستاذ محمد أمين المصري للشيخ ناصر، وتوالت اعتراضات شعيب على بعض إجاباته، وبدأ أمين المصري يتعرَّف من خلال هذه الإجابات إلى شابٍّ له اهتمامٌ بالحديث الشَّريف، اسمه شعيب.

❑❑❑

[٤]

وبعيداً عن التدريس وهمومه، ومطارحات العلم وشجونه، كان شعيبٌ يستروح أحياناً في بيت الشيخ محمد الهاشمي في المهاجرين، يستمع إلى دروسه في التصوف، التي تشدُّ إليها العقول والقلوب، ويتملَّى بسَمْته الوقور الهادئ المتواضع، ويأنس بأدبه الجمِّ، وحنوِّه البالغ.

وامتدَّت معرفته بالشيخ محمد الهاشمي من أيام تلمذته على الشيخ محمد عارف الدُّوَجي، حيث كان يلتقيه في بيت المحدِّث الأكبر الشيخ بدر الدِّين الحسني، وقد توسَّم به الشيخ الهاشمي خيراً، فكان يقدِّمه في آخر درسه للدعاء..

هذه الصِّلة بقيت حتى صدرت للشيخ الهاشمي في سنة ١٩٥٧م/ ١٣٧٦هـ رسالة بعنوان: «القول الفَصْل القويم في بيان المراد من وصية الحكيم»، شرح فيها بَيْتَي الشَّاعر:

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى ... خطبٌ ولا تتفرَّقوا آحادا
تأبى الرِّماح إذا اجتمعن تكسراً ... وإذا افترقن تكسَّرَتْ أفرادا

وقد نَقَلَ في فاتحتها عن الشيخ ابن عربي في «الفتوحات

المكية» ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] ـ قوله: اعلم أن هذا تنبيه من الحقِّ على أن كلَّ كلام في العالم كلامُه.

فانبرى شعيب للرَّدِّ على الشيخ الهاشمي بقوله: هذا خطأ، فإن كلام الله سبحانه وتعالى هو القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل والزَّبور، وصُحُف إبراهيم وموسى، أما كلامنا فليس هو كلام الله، وأرى أن ما يقوله ابن عربي يرشح منه القول بوحدة الوجود.

وطال النقاش مع الشيخ محمد الهاشمي في هذا الموضوع، وحين خرج شعيبٌ من بيته عزم على ألا يعود إلى دَرْسه.

* * *

وفي أواخر سنة ١٩٥٧م/ ١٣٧٧هـ ارتقى شعيبٌ في المعهد العربي الإسلامي، للتدريس في المرحلة الثانوية، مكان الشيخ الأزهري المصري مختار الظواهري، الذي رجع إلى مصر ومعه نخبةٌ من علماء دمشق للتحضير للوحدة التي قرب قيامها بين سورية ومصر، وكان الشيخ الظواهري مقيماً في دمشق منذ زمن، مدرِّساً في مساجدها، ومعهدها.

وفي نحو هذه الأيام خلع شعيب الجُبَّة، ولبس البدلة المحكمجية، وهي بنطال مع معطف طويل.

* * *

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢.

وفي العام الذي يليه، في صيف ١٩٥٨م/ ١٣٧٧هـ، وقد بلغ شعيبٌ الثلاثين عاماً، تزوَّج من فتاة دمشقية هي إلهام أبو الخير[١].

ولم يمض على زواجه نحو أسبوع حتى توفي شيخه الأثير نوح نجاتي الألباني، والد الشيخ ناصر، وقد ناهز الثمانين عاماً، فحزن عليه شعيب أشدَّ الحزن، لعلمه وتواضعه وورعه.

❑ ❑ ❑

---

(١) وقد أنجب منها تسعة أولاد، أربعة ذكور، هم: أسامة، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، وذكوان، وخمس إناث،هن: بيان، وجمانة، وأروى، وأسماء، وأُنيسة.

[٥]

لم تدم طويلاً صُحبة شعيب للشيخ ناصر الدِّين الألباني، إذ سرعان ما احتدم الخلافُ بينهما لاختلاف منهجيهما.

وقد ظهرت بوادر هذا الخلاف في دروس الشيخ ناصر التي كان يعقدها وقتئذٍ في بيتٍ في حي الشهداء بالصَّالحية، وكان يدرّس فيه كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية، و«الروضة الندية» لصدِّيق حسن خان، وكان شعيب يحضر تلك الدروس، وفي كل درس يشتبك مع الشيخ ناصر في نقاش طويل حول فهم بعض عبارات ابن تيمية، لأن كلاً منهما كان يفهم من كلامه ما لا يفهمه الآخر، ويتخلل نقاشهما المحتدم أحياناً عباراتٌ لا تخلو من قسوة.

وقد آثر شعيب غيرما مرَّة أن ينقطع عن حضور تلك الدروس لولا إلحاحٌ من بعض أصحاب الشيخ ناصر على حضوره، لما يلمسه من فائدة من هذا النقاش.

* * *

بيد أن ما قطع الصِّلة بينهما تماماً، هو ذلك النقاش الذي ثار بينهما حول تفسير الصَّحابة للقرآن الكريم.

فقد كان شعيبٌ ذات يوم في محل الشيخ ناصر يزوره كعادته، ودار بينهما حديثٌ حول فهم آية من القرآن، فسأل الشيخ ناصر شعيباً عن موقفه من تفسير الصحابة، فردَّ عليه شعيب قائلاً: الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ صحبوا رسول الله عليه وسلم، وفهموا عن رسول الله ﷺ ما كان يقوله لهم، وأدركوا معانيه التي كان يفسِّر بها القرآن، فأنا أرجِّح رأيهم إذا اتفقوا، واختار من آرائهم إذا اختلفوا ما أراه أقرب إلى فهمي. فقال الشيخ ناصر: هل يجوز لك أن تزيد من عندك على ما فسَّروه؟ قال شعيب: إذا كان النصُّ يحتمل زيادة في المعنى فجائز، لأن التنصيص على شيء لا يدل على نفي ما كان من بابته.

قال الشيخ ناصر: لا، بل عليك أن تلتزم بتفسير الصحابة، لا تحيد عنه.

قال شعيب: أنا لا ألتزم بتفسير الصحابة، فقد يكون المعنى الذي فسَّروا به النص قد استدعته ضرورة أحوجتهم إلى ذلك في عصرهم، فلذلك بابُ الاجتهاد مفتوح.

قال الشيخ ناصر: لا، لا يجوز لك أن تزيد على ما جاء عنهم.

قال شعيب: وما دليلك على ذلك؟

قال الشيخ ناصر: قول الحاكم النَّيْسابوري في «المُسْتدرك»: إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديثٌ مسند. يعني أنه حُجَّة ينبغي أن نأخذ بها.

قال شعيب: هذا قول الحاكم، فما دليله عليه؟

نظر الشيخ ناصر إليه، وأحدَّ إليه النظر، ثم قال: هل تحب أن يكون نقاشنا مكتوباً؟

قال شعيب: كما تشاء.

فأمسك الشيخ ناصر بورقة كانت أمامه، وكتب عليها بخطِّه المضطرب: قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[1].

كتب شعيب: ماذا تريد من إيراد هذه الآية؟

كتب الشيخ ناصر: يتبع غير سبيل المؤمنين، وهم الصَّحابة.

كتب شعيب: أظنك في هذه الآية تأخذ بقول الشَّافعي الذي استدلَّ بها على الإجماع، ولو أنك تدبرت أول الآية لتبين لك خطأ ما ذهبتَ إليه، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، هما أمران إذن، أولهما المشاققة، أي هو في شِق، ورسول الله ﷺ في شِقٍّ آخر، يعني هو كافر، يبين ذلك ويوضحه قوله تعالى في الأمر الثاني: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلا يُستدل بهذه الآية على الإجماع، ولا على ما قلت، حتى إنَّ بعض الأصوليين خطؤوا الإمام الشَّافعي في استدلاله هذا.

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٥.

كتب الشيخ ناصر: هل تستطيع أن تفسِّر القرآن دون الرُّجوع إلى أقوال الصَّحابة؟

كتب شعيب: نعم، لأن رب العالمين لم يتعبدنا بما نطق به الصحابة، وأنت تعرف أن ابن عباس رضي الله عنه فسَّر سورة من القرآن، ثم قال الرَّاوي عنه: لو سمعت هذا الدَّيْلم لأسلمتْ. ولم ينقل إلينا من تفسيره هذا شيئاً.

كتب الشيخ ناصر مؤكداً: هل تستطيع أن تفسر القرآن دون الرجوع إلى أقوال الصحابة؟

كتب شعيب: نعم، أستطيع.

كتب الشيخ ناصر: هذه والله جرأة عظيمة.

كتب شعيب: ليست هذه بجرأة عظيمة، لأن ما يكفيني في تفسير آية أو سورة هو الأحاديثُ الصحيحة التي لها اعتلاقٌ بها، وفهمي للعربية، ومعجمٌ لغوي في مكتبتي.

كتب الشيخ ناصر: هل تفسر القرآن بهذا؟

كتب شعيب: نعم.

كتب الشيخ ناصر: وما قيمة تفسير الصحابة إذن؟

كتب شعيب: أستأنس به، فإذا اتفقوا على قول آخذ به، ولا أخالفهم، وهذا سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن»، وأنت تقرأ بعض فصوله في مجلة «المسلمون»، لم يعتمد فيه إلا على

ما توحيه ظلال الآيات له من معانٍ، وقد استطاع بذلك أن يفسر القرآن دون الرجوع إلى أقوال الصحابة. ثم إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ تفرقوا مع الفتوحات في البلاد، وما نقل لنا من أقوالهم لا يستوعب تفسير القرآن كله.

كتب الشيخ ناصر: ماذا تعني بهذا؟

كتب شعيب: أعني أن رب العالمين ما تعبَّدَنا بأقوال الصحابة، وإنما تعبدنا بالكتاب والسُّنَّة الصحيحة والإجماع والقياس الصَّحيح.

كتب الشيخ ناصر: هذه دعوى كبيرة أنا أخشى عليك منها، وأرى أن نقف في نقاشنا هنا.

كتب شعيب: لك ما تشاء

* * *

وخرج شعيب من محل الشيخ ناصر، ولم يعد إليه، ولم يبق بينهما إلا سلامٌ خافت يلقيه أحدهما على الآخر إذا التقاه في الطريق.

❑ ❑ ❑

نحو تحقيق التراث

المكتب الإسلامي ومرحلة التأسيس

[١]

وفي ذلك الصَّيف من عام ١٩٥٨م/ ١٣٧٧هـ، خطا شعيبٌ خطواته الأولى في عالم تحقيق التراث.

وكان صديقه عبد القادر الأرنؤوط قد سبقه إليه بنحو سنة ونصف، حين طلب إليه الأستاذ محمد زهير الشَّاويش إتمام تحقيق كتاب «غاية المُنْتهى في الجَمْع بين الإقناع والمُنْتهى» للفقيه الحنبلي مرعي بن يوسف المقدسي.

وزهير الشاويش هو من حيِّ الميدان بدمشق، ومن شباب الإخوان المسلمين، وقد برز واحداً من قادتهم لما يتمتع به من جُرْأة وذكاء، ثم سافر إلى قطر مدرِّساً، وأتاحت له الظروف الاتصال بأميرها علي بن عبد الله آل ثاني، فوسَّد إليه ثقةً به أن ينهض له بمشروع تحقيق كتب الحنابلة وطباعتها في دمشق، فكان فاتحة أعماله كتاب «غاية المنتهى»، وقد كلف الشيخ محمد جميل الشَّطِّي ــ وهو مفتي الحنابلة بدمشق ــ تحقيقه، فحقق منه الجزء الأول، وشرع في الثاني، بيد أنَّ خلافاً وقع بينه وبين زهير الشاويش على بعض تعليقاته فيه، فآثر ترك العمل به، فأشار الشيخ ناصر الدِّين الألباني على زهير ــ وكانت بينهما علاقة حميمة قديمة ــ أن يكلف الشيخ عبد القادر بإتمامه.

ولأن مشروعاً كبيراً كهذا لا يمكن أن ينهد له فردٌ واحد، فقد طلب زهير من عبد القادر أن يرشِّح له من يستعين به، فأشار عبد القادر عليه بشعيب ـ وكان في عطلة الصيف من المعهد العربي الإسلامي ـ فكلَّفه زهير تحقيق كتاب «منار السَّبيل في شرح الدليل» لابن ضويان.

وبرغم أنَّ شعيباً كانت له عناية بالفقه منذ دراسته له على الشيخ محمد صالح فرفور، غير أنه تفقه على مذهب أبي حنيفة، و«منار السَّبيل» من كتب الحنابلة، ولكل فقه أصوله ومصطلحاتُه، ثم إنه لم يكن له سابق تجربة في التحقيق، ومن ثَمَّ اقتصر عمله في الكتاب على نَسْخه، ومقابلته بالنُّسَخ الخطية مع تلميذه عبد العزيز رباح، ثم ترقيمه وتفصيله، ولم يعلِّق عليه إلا تعليقات يسيرة، لأن جهده كان مصروفاً إلى إخراجه محرَّراً من شوائب التصحيف والتحريف والسَّقْط، ولم يعتن بضبطه، لأن الطباعة في ذلك الوقت لم تصل إلى تشكيل الحرف.

وفي بيته كان يعكف عليه، مستعيناً بما عنده من مصادر ومراجع، مكملاً نقصها من مكتبة المعهد العربي الإسلامي.

❑❑❑

[٢]

ربما في بداية عام ١٩٥٩م/ ١٣٧٨هـ افتتح الأستاذ محمد زهير الشاويش مكتباً للتحقيق في حي الحلبوني بدمشق، سمَّاه «المكتب الإسلامي»، وأسند إدارته للشيخ عبد القادر الأرنؤوط، وعين الأستاذ بشير عيون ناسخاً فيه، وكان يختلف للمكتب الأستاذ عبد الرحمن الباني، والأستاذ عصام العطار لصحبة تربطهما بزهير.

وكان شعيب يختلف إلى المكتب أحياناً في أثناء عمله في «منار السبيل»، مصحِّحاً لتجارب طبعه.

وذات يوم، وبينا كان شعيبٌ قريباً من المكتب عنَّ له أن يدخل مكتبة تقع قُبالته، فدخلها، وراح يقلِّب في كتبها، فوقعت عينه على رجل أنيق، يعتمر طربوشاً أحمر، فوقع في قلبه أنه الأستاذ محمد أمين المصري، ولم يكن قد التقاه من قبل، فتقدَّم نحو صاحب المكتبة، وسأله بصوتٍ خافت: من هذا الأستاذ؟ يريد أن يتأكد مما حدَّثته به نفسه، فقال صاحب المكتبة: هذا الدكتور محمد أمين المصري، وقد عاد من لندن، ويدرِّس الآن في كلية الشريعة في جامعة دمشق. فأقبل عليه شعيب مسلِّماً، وقد سرَّه هذا اللقاء المفاجئ الذي كان يتمنَّاه، فالتفت إليه أمين المصري، سائلاً له عن

اسمه، فقال: شعيب الأرنؤوط. فاتسعت عينا أمين دهشة، وصاح: أنت شعيب؟ منذ شهرين وأنا أبحث عنك، والآن قد ظفرت بك، والحمد لله. وأخذه من يده، وخرجا من المكتبة، وقادتهما خطواتهما إلى بيت أمين المصري، وكان يسكن في حي المهاجرين، وطوال الطريق كانا يتجاذبان أطراف الحديث حول رسائله إلى الشيخ ناصر الدِّين الألباني، وردود شعيب على بعضها.

وتعمَّقت مع الأيام صلة شعيب بأمين المصري، وكان من ثمرتها ذلك المجلس الذي كان يضمُّهما مع الأستاذين عبد الغني الباجقني وجودة الهاشمي ـ أستاذ الرِّياضيات القدير ـ عصر كلِّ يوم في المعهد العربي الإسلامي، يقرؤون فيه كتاب «أصول الفقه» للشيخ محمد أبي زهرة، وقد بدا شعيبٌ في هذا المجلس لإتقانه هذا الفن، وكأنه ـ وهو أصغرهم سناً ـ أستاذهم فيه، فهو يشرح عباراته، ويغوص في معانيها، منتزعاً إعجاب الدكتور أمين المصري به، وهو يقول له: أنا لمَّا كنتُ في سِنِّك ما كنت مثلك!

وقد بلغ من ثقته بشعيب أنه كان يطلعه على أسئلته للامتحان في قسم الحديث، ليعدِّل فيها ما يراه بحاجة إلى تعديل.

* * *

في صيف عام ١٩٥٩م/ ١٣٧٨هـ أتمَّ شعيب عمله في كتاب «منار السبيل»، وقد طبع في المكتبة الهاشمية، وصدر على أنه من منشورات دار السَّلام، ولم يُكتب اسم شعيب على غلافه، شأنه في ذلك شأن صديقه عبد القادر، وإنما كتب في آخر صفحة فيه بقلم

ناشره زهير الشاويش: «وقد أسهم في إخراجه ومراجعته والتعليق عليه الأخ الأستاذ شعيب الأرنؤوط المدرِّس في المعهد العربي الإسلامي».

ولإعجاب زهير بعمل شعيب رغب إليه أن يعمل في المكتب الإسلامي في العطلة الصيفية، فعمل شعيب نحو أربعة أشهر، وقد بدا منه في أثناء العمل ما يدل على أنه طالب علم متمكن، فازداد تعلق زهير به، فما إن انتهت العطلة حتى طلب إليه الاستمرار في العمل في المكتب، وأغراه براتبٍ جيد.

فأصبح شعيب يدرِّس في المعهد العربي الإسلامي ساعتين صباحاً كل يوم، ثم يأتي إلى المكتب الإسلامي في الساعة التاسعة والنصف، ولا يخرج منه حتى الساعة السادسة مساءً.

❑❑❑

[٣]

لم يمضِ على عمل الشيخ شعيب في المكتب الإسلامي نحو أربعة أشهر حتى رجع من القاهرة الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ، وقد نال درجة الماجستير من جامعتها، ونشر فيها تحقيقه لديوان ابن الدُّمَيْنة، وصار يختلف إلى المكتب الإسلامي لصداقة قديمة كانت تربطه بالأستاذ زهير الشَّاويش.

وكان النَّفَّاخ ـ وقد صحب في القاهرة العلامة محمود محمد شاكر، وتشبَّع بمنهجه في قراءة التراث وتحقيقه، مع ما أوتي هو من ذكاء نادر ـ قد تميز عن أقرانه بالفهم الدقيق، وبالتتبع الملحاح للمسائل العلمية التي يدرسها في مظانِّها دون أن يعتوره ملل أو كلال حتى يصل إلى أصلها، وما تفرَّع منها، وقد أكسبه ولعه بالتحقيق وشغفه به قدرة عظيمة على فهم نصوص التراث مهما تكن غامضة أو شائكة، وأغراه هذا الولع بتتبع أخطاء الآخرين وعثراتهم فيما يحققون.

وكان ذا اطلاع واسع على العربية ونحوها وصرفها، وفقهها ونثرها وشعرها، جاهِلِيِّه وإسلامِيِّه، حتى قيل فيه حقًّا: إنه لا نظير له في الشَّام.

وقد أوتي سخاوة نفس وأريحية مع أصحابه ومن يأنس به، بيد أن عواطفه لا توسَّط فيها، فهو إذا أحبّ، فما شئتَ من حب ووفاء، وإذا أبغض، فما شئت من مقت وشحناء.

ولم يكن شعيب في عمله الجديد في التحقيق يفتقر إلى فهم النصوص، وهو صاحب التجربة الواسعة في القراءة، وإنما ما كان يفتقر إليه حقاً هو فن إخراج النص، وكان للأستاذ النَّفَّاخ بَصَرٌ وذوق عالٍ فيه.

وقد اشتدَّ حرص شعيب على استكمال أسباب فن التحقيق، والوقوف على خفاياه، فكان يُمعن النظر في الكتب التي حققها الرَّعيل الأول من المحققين الكبار، أمثال أحمد شاكر وعبد العزيز الميمني الراجكوتي، وغيرهما، ويلتقط منها قواعد التحقيق وأصوله، وما يفوته منها يتعلمه من الأستاذ النفاخ، فمنه تعلم فن إخراج النص، والاعتناء بتفصيله وترقيمه، وكذلك تعلم منه منهجه في البحث المستقصي، وذلك بتتبع المسألة العلمية من مظانِّها حتى يقف على حلها، وقد عَرَفَ من راتب أن بعض المحققين ممن نال نصيباً من الشهرة، مثل الأستاذ عبد السلام هارون لم يصلوا إلى مرتبة الإتقان في التحقيق، وما زالت تعوزهم فيه أشياء كثيرة.

وأكثر ما استعان به شعيب حين طُلب إليه في المكتب تحقيق ديوان شاعر الإحساء علي بن المُقَرّب العيوني، المتوفى سنة

٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م وكان الديوان قد طبع في الهند طبعة سقيمة، ولم يكن عند شعيب أصلٌ خطي له يعتمد عليه في تحقيقه، ففزع إلى الأستاذ النَّفَّاخ كي يساعده في حلِّ تحريفاته وتصحيفاته، فكانا يجلسان معاً ساعات طويلة، وهما يقوِّمان ما انآد من أشعاره، فاستقام لهما معنى بعضها، وبقي بعضها الآخر مغلقاً دونهما، ولم يكن شعيب راضياً عن عمله فيه.

❑❑❑

[٤]

ودأب شعيب على قراءة كتب المذهب الحنبلي، وخاصة بعد أن عُهد إليه مع الشيخ عبد القادر الأرنؤوط بإخراج كتاب «مطالب أولي النُّهى في شرح غاية المُنتهى» للرحيباني، ثم من بعده كتاب «الكافي في فقه الإمام المبجَّل أحمد ابن حنبل» لابن قدامة المقدسي.

وكان كتاب «مطالب أولي النهى» قد وزِّعت مجلداته الستة على بعض علماء دمشق ممن له اشتغالٌ بالفقه، ووكل لشعيب وعبد القادر مراجعته وتصحيحه.

فانكبَّ شعيبٌ على قراءة كتب الحنابلة كي يستدرك ما فاته من أسباب تحقيقها، فقرأ فيما قرأ مقدمة «الإنصاف» للمَرْداوي، و«المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل» للشيخ عبد القادر بن بدران.

بيد أن أكثر ما استفاده في الفقه الحنبلي كان من الشيخ عبد القادر الحتّاوي، وهو من فقهاء دوما ـ وهي بلدة قرب دمشق، ومعظم أهلها حنابلة ـ بل من أفقههم، حتى إن مفتي الحنابلة في دوما كان يستفتيه فيما يعتاص عليه من فتاوى، ويأخذ بأقواله.

وكان الحتَّاوي على علمه الجليل يتكسَّب من العمل في تنظيف مسلخ دوما، حيث تُنحر الجمال، وتذبح الخِرْفان، فلما دُلَّ عليه الأستاذ زهير الشاويش، زاره، وقال له: مالك ولهذا العمل؟ مكانك اللائق في المكتب الإسلامي.

فصار الشيخ عبد القادرالحتَّاوي يجلس في المكتب الإسلامي كل يوم، وكلما عَسُرَ على شعيب فهمُ عبارةٍ من عبارات الفقه الحنبلي، أو مصطلح من مصطلحاته، كان يشرحه له شرحاً مستفيضاً، حتى غدا شعيبٌ على دراية بهذا الفقه، وبدأت منزلته في المكتب الإسلامي تترسَّخ.

وقد أعجب الشيخ عبد القادر الحتَّاوي بالشيخ شعيب لما رأى من دأبه في العمل، والتزامه وانضباطه فيه، فقال له يوماً مداعباً: أنت مقاتل بن حيان! وكان الشيخ عبد القادر حاضر البديهة، بارع النكتة.

وبقي شعيبٌ على ملازمته له حتى وفاته سنة ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ، فكان يزوره في بيته حين أقعدته الشيخوخة، سائلاً له عما يُشْكل عليه من عبارات الفقهاء.

❑❑❑

[٥]

وجمعته تلك الأيام بالشيخ الأديب البارع علي الطنطاوي، في بيت أخيه سعيد الطنطاوي، وكان شعيب يزوره في يوم عيد، لصلة كانت بينهما، نشأت من خلال عملهما معاً في المكتب الإسلامي.

كان الشيخ علي الطنطاوي وقتئذٍ مِلءَ السَّمْع والبصر في دمشق، وكان شعيبٌ قد حضر له قبل نحو سنة محاضرة في ردهة جامعة دمشق، تحدَّث فيها الطنطاوي عن شخصية الرسول ﷺ، وتعرَّض فيها إلى الشخصية الإسلامية وتكوينها، وتساءل في محاضرته: هل يميز هذه الشخصية المَخْبر فقط، أم لا بد لها من المَظْهر كذلك؟ وقد ذهب إلى أن ما يميزها حقاً هو المخبر، ولا علاقة لها بالمظهر، فليس ثمة مانعٌ للمسلم في أن يخرج إلى دنيا الناس في أي مظهر يريده.

وأردف رأيه هذا بقوله: كلامي يحتمل الخطأ والصَّواب، ومن أراد أن يناقشني، فله ذلك. ورفع شعيب يده، طالباً التعقيب على كلامه، بيد أن وقت المحاضرة كان قد انتهى، فلم يُتح له الكلام.

فلما رآه الشيخ علي الطنطاوي في بيت أخيه سعيد، قال له، وقد تذكر محاضرته تلك: أنت منذ زمن كنت تريد أن تعقِّب على كلامي في محاضرة الجامعة، أما زلتَ تذكر ذلك؟ فقال شعيبٌ: نعم، كنت أودُّ أن أبيِّن أن التشبه بأهل الكتاب لا يجوز حتى في المظهر، دليلي على ذلك حديثُ أبي أمامة رضي الله عنه، وقد رواه أحمد في «المسند»، أنَّ رسول الله ﷺ خرج على مشيخة من الأنصار بيضٍ لحاهم، فقال: **«حمِّروا وصفِّروا وخالفوا أهل الكتاب»**. قال: فقلنا: يا رسول الله، إنَّ أهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون، فقال رسول الله ﷺ: **«تسرولوا وائتزروا، وخالفوا أهل الكتاب»**. قال: فقلنا: يا رسول الله، إنَّ أهل الكتاب يتخفَّفون ولا ينتعلون، فقال النبي ﷺ: **«فتخفَّفوا وانتعلوا، وخالفوا أهل الكتاب»**. قال: فقلنا: يا رسول الله، إنَّ أهل الكتاب يقصُّون عثانينهم ويوفِّرون سِبالهم. قال: فقال النبي ﷺ: **«قصُّوا سبالكم ووفروا عثانينكم، وخالفوا أهل الكتاب»**.

فهذا يعني أنَّ النبيَّ ﷺ كان يحبُّ للمسلم أن يتميز بمظهره كذلك عن غيره.

فأمسك الشيخ علي الطنطاوي بالقلم، وكتب الحديث الشريف، ثم قال: أنا شاكرٌ لك، وآسفٌ حقّاً أن الوقت لم يُتح لك للرَّدِّ عليَّ، ولم يكن الأمر بيدي، ولو تكلمتَ بهذا أمام الناس لسرَّني ذلك.

ثم صمتَ قليلاً، وكأنه يجيل في ذهنه فكرة، ثم التفت إلى شعيب قائلاً له: هل قرأتَ يوماً القرآن الكريم لتفهم أنت وحدك ما يقوله لك ربُّ العالمين؟ فأجاب شعيب: لا، إنما أستعين على ذلك بقراءة التفاسير. فقال الشيخ علي الطنطاوي: أقترح أن نجتمع معاً على فهم القرآن بعيداً عن التفاسير..

وهكذا بدأ هذا اللقاء مرة في كل أسبوع، وكان يحضر معهم الأستاذ عبد الغني الطنطاوي، فيقرؤون ما تيسَّر من آيات القرآن الكريم، ويجتهد كل واحد منهم في فهم ما قرأ منها، وقد وثقت هذه اللقاءات الصِّلة بينهما، لأن آراءهما كثيراً ما كانت تتفق في فهم آية من الآيات.

وذات يوم، وبينما كانوا يقرؤون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾[1]، فسَّروا كلمة راعنا من الرُّعونة، وأن اليهود كانوا يستخدمون هذه اللفظة في معرض الذم، فلذلك أمرهم رب العالمين أن يستبدلوا بها لفظ: انظرنا.

فخطر في بال شعيب حينئذٍ فكرة، فرفع رأسه وقال: إننا نستفيد من هذه الآية الكريمة أنه لا يجوز للمسلمين أن يستعيروا ألفاظاً ومصطلحات من الآخرين، يرقِّعون بها إسلامهم، فقال له الشيخ علي: وكيف يكون ذلك؟ فقال شعيب: يعني لا يجوز مثلاً

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٤.

أن نقول: إن الإسلام اشتراكي، أو يؤمن بالاشتراكية العادلة، لأن مفهوم الاشتراكية عند أصحابها أنها مذهبٌ مادي يقوم على تطور المادة، وحين نستعمل نحن هذا المصطلح نحمّله من المعنى ما لا يقصده أصحابه منه، وذلك حين نقول: إن الناس مشتركون في بعض الحاجات المادية. فنظر إليه الشيخ علي نظرة إعجاب، وقال له: هؤلاء المدرِّسون في الجامعة لا يفقهون، أنت من يجب أن يدرِّس في الجامعة. وكان في ذلك يعرِّض بالشيخ مصطفى السِّباعي، وكان يلقي في ذلك الوقت محاضرات في الجامعة عن «اشتراكية الإسلام»، ثم جمعها فيما بعد في كتاب.

* * *

وآخر لقاء جمعه مع الشيخ علي الطنطاوي كان في أواخر أيام الوحدة مع مصر، وقبل وقوع الانفصال بأيام، فقد صلَّى شعيبٌ ذلك اليوم صلاة الجمعة في مضايا، وهو متنزه قرب دمشق، وكان علي الطنطاوي حاضراً، فمما حكاه خطيب الجمعة قصة ثعلبة بن حاطب، وكيف دعا له رسول الله ﷺ بسَعَة الرِّزق، ثم بخل به من بعد، فلم يؤدِّ زكاته، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[1].

(١) سورة التوبة: الآيات ٧٥ ــ ٧٧.

فلما سمع ثعلبة ما نزل به، ندم على ما بدر منه، وأسرع إلى رسول الله ﷺ ليؤدي له زكاة ماله، فلم يقبلها منه رسول الله ﷺ، وكذلك لم يقبلها منه خليفتاه أبو بكر وعمر، ثم مات ثعلبة في خلافة عثمان.

لمَّا خرجا من المسجد، سأل الشيخ علي الطنطاوي شعيباً عن صحة هذه القصة، فقال شعيب: لا، لا تصح، في إسنادها علي بن يزيد الألهاني، وهو مجمعٌ على تَرْكه، ثم إن هذه الآيات نزلت في المنافقين.

وتمشيا معاً ما بين مضايا وبقين، وهما يتطارحان ما يشغل بال المسلمين وقتئذٍ.

وحين افترقا، لم يُقدَّر لهما الاجتماع مرة أخرى(١).

❑❑❑

(١) أقام الشيخ علي الطنطاوي في المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٦٣م/ ١٣٨٣هـ، ولم يزر دمشق إلا لماماً وعلى فترات متباعدة كان آخرها سنة ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ، انظر: «ذكرياته» (١/ ١٧ ـ ١٨).

[٦]

وفي مضايا التقى شعيبٌ شيخَه محمد صالح فرفور بعد طول قطيعة.

كان شعيب قد استأجر بيتاً في هذا المَصِيف الجميل، وذات يوم وبينما كان جالساً قرب عين عذبة باردة، مرَّ بقربه شيخه صالح، وهو يفتش عن بيت يستأجره، فنهض نحوه شعيب، مسلِّماً عليه بحرارة، داعياً له إلى الجلوس في ضيافته، مقدِّماً له الحلوى والفواكه، فأذابت حرارة هذا اللقاء ما كان في قلبه من صقيع الجفاء.

وعاود شعيب زيارة شيخه في بيته في الأعياد، والتكلم في مجلسه، وصار الشيخ صالح يسأله عن أعماله التي أنجزها، ويبدي إعجابه بها، وإذا ما التقاه في الطريق يبادره بالسَّلام، قائلاً له: يا بني، الله يرضى عليك، ادعُ لنا، فأنت رجلٌ طيب.

وهكذا انتهت قطيعة شعيب مع شيخه محمد صالح فرفور.

❑❑❑

[٧]

كان من بواكير أعمال المكتب الإسلامي تحقيق كتاب «مِشْكاة المصابيح» لمحمد بن عبد الله الخطيب العمري التِّبْريزي، المتوفى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، فكان الشيخ ناصر يأتي إلى المكتب كلَّ يوم ساعتين يخرِّج أحاديثه، ويحكم عليها، ويقوم الشيخان عبد القادر الأرنؤوط ومحمد لطفي الصَّبَّاغ على ضبطه وتصحيحه.

ثم ما لبث الشيخ ناصر في سنة ١٩٦١م/ ١٣٨١هـ أن دُعي للمدينة المنوَّرة ليدرِّس في جامعتها الإسلامية.

وفي أثناء غيابه قام المكتب الإسلامي بطبع تحقيقه لكتاب «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزّ الدمشقي، المتوفَّى سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م، وكان الشيخ ناصر قد فرغ منه في شهر ذي الحجة سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨١هـ، وكُلِّف الشيخان شعيب وعبد القادر تصحيح تجاربه.

ووقف شعيب في أثناء تصحيحه على بعض أخطاء الشيخ ناصر فيه، منها تعليقه على حديث: **«من قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النَّار»**، بقوله: لا أصل لهذا الحديث باللفظ المذكور في شيء

من كتب السُّنَّة التي وقفتُ عليها، وأظنُّه وهماً من المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ والمعروف بلفظ: «**مَن قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»، رواه أبو داود والنَّسائي والتِّرْمذي وابن جرير والبغوي في «شرح السُّنَّة»، وابن الأنباري وغيرهم، وسنده ضعيف.

والحديث باللفظ الذي ساقه ابنُ أبي العزّ هو في «سنن الترمذي»، وحين أطلع شعيبٌ صديقه عبدَ القادر على هذا الخطأ، توقف في تصحيحه، وقال: لا أستطيع أن أغيِّر فيه شيئاً حتى أتَّصِل بالأستاذ زهير الشاويش. ولما اتصل به، قال له زهير: أرجئ تصحيحه حتى عودة الشيخ ناصر من المدينة المنوَّرة، فلما عاد الشيخ ناصر، ونظر في تصحيح شعيب له أقرَّه عليه، وأشار إلى ذلك في استدراكٍ آخر الكتاب، فقال: «تبين لي أنني وهمتُ في توهيم المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فإن اللفظ المذكور قد أخرجه الترمذي في تمام حديث: «**اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم...**»، ورواه ابن جرير أيضاً، وقد خرَّجته على الصَّواب في تحقيق «المشكاة» رقم الحديث (٢٣٤)، وغيره، والفضل في هذا الاستدراك يعود إلى أحد المصحِّحين في المكتب الإسلامي، جزاه الله خيراً».

ويبدو أن قلم الشيخ ناصر لم يطاوعه في التصريح باسم شعيب.

❑❑❑

[٨]

وفي نحو تلك الفترة عمل شعيبٌ في تحقيق كتاب «مختار الأغاني» لابن منظور، يعاونه فيه الأستاذ سعيد الطنطاوي، وطبع في اثني عشر مجلداً، وقدَّم له شعيبٌ بمقدِّمة ضافية، بيد أن اسمه لم يُكتب عليه، ولم يُشر إليه.

على أنَّ العمل الذي ظهرت فيه براعة شعيب في التحقيق هو كتاب «زاد المسير في علم التفسير» للإمام أبي الفرج ابن الجوزي.

إذ قُدِّمت له نسخة مصورة منه عن أصل خطِّي في مكتبة راغب باشا في استانبول، وهي نسخة ـ على جمال خطِّها ووضوحه ـ لم يَخْلُ سطرٌ من سطورها من تصحيفٍ أو تحريف أو سَقْط، فكان شعيبٌ يراجع كتب التفسير كلها حتى يقوِّم ما زاغ من عباراتها، وقضى نحو أربعة أشهر لم ينجز خلالها سوى ثلاثين ورقة، عانى في تحقيقها ما عاناه، حتى تبرَّم من الكتاب، وبثَّ شكواه لصديقه الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ، فاتفق رأيهما على أنه لا بدَّ من أصول جيادٍ للكتاب إذا أريد له أن يُحقَّق على منهج قويم.

وكان الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ وكان له صديقاً ـ قد أخبره أنَّ في حلب نسختين خطيتين من الكتاب في المكتبة الأحمدية، غير تامتين، أولاهما في خمسة أجزاء، بيد أن الجزء الثالث والخامس منها مفقودان، ولا يوجد من الثانية إلا جزء واحد يبتدئ من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الكهف.

فشدَّ شعيبٌ الرِّحال إلى حلب، واطَّلع على هاتين النسختين، فأعجبتاه، فصورَّهما، وعاد بهما إلى دمشق، وشرع في تحقيق الكتاب من جديد، ومما أثلج صدره حقاً، وزاده ثقة واطمئناناً إلى أنه في التحقيق يسير على بصيرة، أنه حين قابل هاتين النسختين بما أصلحه من نسخة استانبول وجد أن ما أصلحه فيها مطابقٌ في صوابه لما في تينك النسختين.

ثم إن الشيخ عبد الفتاح أبو غدة أتاه بنسخة تامة من الكتاب، متقنة الخط، مصورة عن مخطوطة بالخزانة العامة بالرِّباط، فحينئذٍ مضى شعيب في تحقيقه بثقة وثبات.

وقد أنجز وحده تحقيق الأجزاء الأربعة الأولى منه، ولم يقطعه عن العمل فيه إلا سفره إلى بيروت بطلب من الأستاذ زهير الشَّاويش.

* * *

وقبيل سفره إلى بيروت خلع شعيب عِمامته المكوَّرة على طربوش أحمر، التي ألبسه إياها شيخه محمد صالح فرفور، واستبدل بها طاقية بيضاء.

وكان وراء خلعه لها ذلك الحرج الذي كانت تسببه له في حياته اليومية، وهو السَّاعي على عياله، إذْ كان يعتمرها، وقد أثقلت يديه حاجاتُ العيال يحملها إلى بيته، حاثاً خطاه كي يجد له موطئ قدم في الحافلات المزدحمة، فكانت العيون ترميه بنظرات الاستهجان، وهي تراه في حالته تلك وقد تزيا بزِيِّ العلماء!..

ثم إنه قرأ فيما بعد في كتاب «المُغْني» لابن قُدامة المقدسي أن هذه العِمامة تشبه عمائم أهل الكتاب، لأن عمائم المسلمين يكون تحت الحنك منها شيء، ولها ذؤابة تُرسل ما بين الكتفين.. فازداد رضى بما صنع.

❑❑❑

[٩]

وصل شعيبٌ إلى بيروت في أوائل سنة ١٩٦٤م/ ١٣٨٣هـ تاركاً في دمشق زوجته وأولاده، وقد سبقه إليها الأستاذ سعيد الطنطاوي، وكان زهير الشاويش قد افتتح في الحازمية مكتباً جديداً لتحقيق التراث.

وهناك عمل شعيب في تحقيق كتاب «المُبْدع شرح المُقْنع» لابن مُفْلح، وهو من كتب الفقه الحنبلي، فأنجز منه ثلاثة أجزاء.

وفي بيروت يتعرَّف شعيب إلى شباب من طلبة العلم، صاروا يزورونه في بيته كل يوم ثلاثاء، يتدارسون الفقه والحديث، ويتطارحون مسائله، منهم الشيخ فيصل المولوي، والشيخ رشيد الميقاتي، وقد صارا فيما بعد من رجال الدعوة الإسلامية في لبنان.

وكان معروفاً عن زميله سعيد الطنطاوي أخذه بالعزيمة في أموره كلها، وتشدده فيما لا ينبغي له التشدد فيه، فكان شعيب يحاول ما استطاع أن يخفِّف من غُلَوائه.

ومن أطرف ما وقع له أنَّ سعيداً قد اعتاد أن يفترش الأرض حين النوم، متجافياً عن الفراش الذي يقيه حرَّها وبردها، ويوقّت

الساعة على الثانية ليلاً كي ينهض للتهجد، فكان شعيب أحياناً حين يراه غارقاً في نومه، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، يؤخر توقيت الساعة إلى الرابعة، أي قبيل طلوع الشمس بنحو نصف ساعة، وهو الوقت الذي كان فيه شعيب يستيقظ عادة للصلاة، فحين ينهض كان سعيد يفتح عينيه، وقد أفزعه نومه المتأخر، فيعتريه خجلٌ وارتباك، ويتمتم معتذراً، وكأنه قد اقترف إثماً: والله لم أسمع منبِّه الساعة. فيردُّ عليه شعيب، وعلى شفتيه طيفُ ابتسامة ماكرة: أسرع، أسرع، كيلا تفوتك صلاة الفجر!..

* * *

لم يمكث شعيب في بيروت سوى أشهر قلائل، فقد كان لمعركة جمال عبد الناصر مع الإخوان المسلمين في مصر صداها في لبنان، فكانت مشاعر معظم اللبنانيين مستثارة ضدَّهم، وقد اتفق في تلك السنة أن خرج من دمشق بعض الإخوان السوريين، عقب انقلاب البعث فيها، وكان موئلهم المكتب الإسلامي في الحازمية، فيه يجتمعون، وبرغم أن شعيباً لم يكن واحداً منهم، فقد اعتقل في بيروت معهم، ولبث في السجن نحو شهرين، عانى فيهما ما عاناه، وكان معه في السجن الأستاذ عصام العطار، والشَّاعر عمر بهاء الدِّين الأميري، وهما من قياداتهم، وحين لم يثبت عليه شيء تمَّ ترحيله إلى دمشق، وقد تركت هذه المحنة أسوأ الأثر في نفسه.

❑❑❑

[١٠]

عاد شعيبٌ إلى دمشق في أواخر سنة ١٩٦٤م/ ١٣٨٤هـ متفرِّغاً للعمل في المكتب الإسلامي، تاركاً التدريس في المعهد العربي، ويشرع في إتمام ما بدأ به من تحقيق «زاد المسير» لأبي الفرج ابن الجوزي، ويكتب له مقدمة يساعده فيها الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ، فآثار أسلوبه الجميل الرَّصين تلوح بين كلماتها، بيد أن هذه المقدمة وقِّعت باسم الناشر.

وكان صديقه عبد القادر الأرنؤوط قد أنجز في غيابه الأجزاء الخامس والسادس والسابع، فيكمل شعيب تحقيق الجزأين الأخيرين منه، الثامن والتاسع.

وفي غضون ذلك ينجز تحقيق كتاب «المنازل والدِّيار» لأسامة ابن مُنقذ، المتوفى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، وهو من كتب الأدب، وفي المقدمة التي ذُيِّلَت بتوقيع ناشره زهير الشاويش أشير إلى عمل شعيب فيه، فقيل: «وتولى تحقيق الكتاب وتخريج نصوصه والتعليق عليه والإشراف على تصحيحه الأستاذ شعيب الأرنؤوط بمعاونة قسم التحقيق والتصحيح في المكتب الإسلامي».

وشرع عقبه مع صديقه عبد القادر الأرنؤوط في تحقيق كتاب «روضة الطالبين» للإمام النووي، وهو في الفقه الشافعي، ولم يسبق لهذا الكتاب أن طبع من قبل.

* * *

وفي أوائل سنة ١٩٦٨م/ ١٣٨٧هـ ينجز شعيب تحقيق الجزء التاسع من «زاد المسير» لابن الجوزي، وهو الجزء الأخير منه، ويلحُّ شعيب على كتابة اسمه على غلاف الكتاب مع صديقه عبد القادر أسوة بما يُصنع مع كتب الشيخ ناصر الدِّين الألباني، ولا سيما وقد بذلا جهداً كبيراً في تحقيقه.

ويُرسل الكتاب إلى بيروت لطبعه، ويفاجأ شعيب وعبد القادر أن اسميهما لم يكتبا على غلاف الكتاب، بل اكتفي بالإشارة إليهما كالعادة في آخره، وقد أضيف إليهما اسم صاحب المكتب الإسلامي محمد زهير الشاويش أوَّل مرَّة على أنه مشاركٌ في تحقيقه، فقد كُتِبَ: «تم بعون الله وتوفيقه طبع هذا التفسير العظيم، وقد قام بمقابلة أصوله الخطية وتصحيحه، وتفصيله وترقيمه، وتخريج نصوصه والتعليق عليه، والإشراف على طبعه الأساتذة محمد زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

ويقرأ شعيبٌ هذه الكلمات، وقد كواه الغضب، ويتساءل: أين أمانة العلم؟ وكيف يكتب اسمه، وهو الذي لم يخطَّ فيه كلمة واحدة؟ ولمَ هذا الإصرار على إغفال جهودي في الكتب التي

أحققها؟ ألأنني لا أنتمي إلى الإخوان المسلمين كما ينتمي صاحب المكتب؟ أم لأنني لا أوافق الشيخ ناصر على منهجه، وهو صاحب الكلمة العليا في المكتب؟

فما أكثر ما كان يسمع مَنْ يحرِّض زهيراً على إقصائه بقوله: لماذا يعمل هذا عندك، وهو مخالفٌ لك؟ وبلسان رجل الأعمال كان زهير يردُّ قائلاً: ائتني بمن يسدُّ مسدَّه وأنا أصرفه.

وبدأ الضيق يدبُّ في صدر شعيب، وهو يرى سنوات عمره تتآكل، وجهده يضيع، ثم إن أموره مع مدير المكتب في دمشق أخذت تتوتر، وتزداد سوءاً مع الأيام، وحين فاض كأس صبره قرَّر مع صديقه عبد القادر الانتقال للعمل في مكان آخر نأياً بنفسيهما عن المكتب وإزعاجاته، فعملا في بيت شعيب مدة من الزمن، ثم آثرا الانتقال في أواخر سنة ١٩٦٨م/ ١٣٨٨هـ إلى المكتبة الظاهرية.

❑❑❑

[١١]

في قاعة الباحثين في المكتبة الظاهرية جلس شعيبٌ وعبد القادر يكملان تحقيق كتاب «روضة الطالبين»، وعلى مقربة منهما كان يجلس الشيخ ناصر الدِّين الألباني، وقد انكبَّ على أوراقه، ولا يقطع الصمت بينهما إلا سلامٌ عابر، حتى إذا تم الكتاب في اثني عشر مجلداً، قدَّم له فقيه الشافعية بدمشق الشيخ محمد صالح العقاد، وبرغم ما بذلاه من جهد كبير في تحرير نصوصه، فقد ضنَّ عليهما الأستاذ زهير الشاويش بكتابة اسميهما على غلافه، بل إنه ضنَّ حتى بالإشارة إليهما كما جرتِ العادة في الكتب السَّالفة، فقد اكتفى بالقول: «وقد قام الإخوة الأساتذة في قسم التحقيق والتصحيح في المكتب الإسلامي بدمشق بالجهد الأكبر في تصحيحه، وضبط نصوصه، ومقابلة النسخ الخطية على بعضها، وترقيمه وتفصيله، والتعليق عليه».

وهذا الكتاب هو آخر كتاب اشترك شعيبٌ وعبد القادر في تحقيقه في أثناء عملهما في المكتب الإسلامي، إذ استقال الشيخ عبد القادر من العمل في المكتب إثر الفراغ منه، وآثر العمل وحيداً في تحقيق كتاب «جامع الأصول في أحاديث الرسول» لابن الأثير.

وربما إرضاء لشعيب، وإشفاقاً من استقالته هو الآخر دُفع إليه «مسند أبي بكر الصديق» تصنيف الإمام المروزي لتحقيقه.

وكان الشيخ ناصر الدِّين الألباني هو من اكتشف هذه النسخة القديمة من «المسند» بين مخطوطات المكتبة الظاهرية، وقد قابلها، وتهيأ لتحقيقها وتخريج أحاديثها، ولكن لأمرٍ ما دُفعت للشيخ شعيب، فهل كان ذلك امتحاناً له أيضاً لمعرفة ما إذا كان يستطيع حقاً الانفراد بعمل كهذا العمل؟..

فقد كان الغالب على عمل شعيب في المكتب الإسلامي هو تحقيق كتب الفقه الحنبلي، ثم الشَّافعي، وبعض كتب الأدب، بيد أنه لم يعمل قط في كتب الحديث النبوي الشريف، إذ كان العمل فيها للشيخ ناصر الدِّين الألباني، لا ينازعه فيها منازع.

وحين قرأ شعيب «المسند»، وكان الشيخ ناصر قد قرأه من قبله، هاله حقاً ما وجد فيه من تصحيفٍ وتحريف، لم يتنبه لهما الشيخ ناصر.

وانهمك شعيبٌ في تحقيقه وتخريج أحاديثه والتعليق عليها، وقد واتته الفرصة أخيراً التي طالما انتظرها وحلم بها، وحين فرغ منه كتب له مقدِّمة أثنى فيها على الشيخ ناصر الذي له الفضل في استخراج هذا الكنز النفيس من كنوز أجدادنا العظماء، ثم ثنى بالشكر على الأستاذ زهير الشاويش، صاحب المكتب الإسلامي، لمبادرته في نشره.

وعلى غلافه كتب اسم شعيب الأرنؤوط، وهي أول مرة يوضع اسمه على غلاف كتابٍ حقَّقه، وكان في الثانية والأربعين من عمره، وغمره شعورٌ بالامتنان.

❑❑❑

[١٢]

ويبدو أن نجاحه في تحقيق «مسند أبي بكر الصِّدِّيق» للإمام المروزي فتح له الطريق لتحقيق كتاب «شرح السُّنَّة» للإمام البغوي، وهو من أجلِّ الكتب التي تصدَّت لشرح أحاديث الأحكام.

وكان الشيخ محمد نصيف ـ وهو من أعيان جُدَّة وأفاضلها ـ قد اقترح طبع هذا الكتاب الجليل على نفقة الملك فيصل بن عبد العزيز، وكلِّف المكتب الإسلامي تحقيقه وطبعه.

وأرسل نسخة منه منقولة عن أصل محفوظ في مكتبة الحَرَم المكي، وهي النسخة الوحيدة التَّامة من الكتاب، بيد أن ناسخها المجهول لم يكن بالمتقن، فوقع فيها تصحيفٌ وتحريف وسقط ونقص، تدارك بعضه الشيخ محمد بن عبد الرزاق آل حمزة، مدير دار الحديث بمكة المكرمة، والمدرِّس في حرمها، وذلك بمقابلته بالأصل، وفاته شيءٌ غير قليل.

واطَّلع الشيخ ناصر الدِّين الألباني على هذه النسخة، وشرع في تحقيقها، بيد أنه على شواغله الكثيرة كانت تعترضه صعوباتٌ في قراءتها لما وقع فيها من أوهام وتحريفات، فانصرف عنها مشفقاً أن

تُعطى لشعيب، غير أن الأستاذ الشاويش لم يجد أمامه إلا شعيباً ليسند إليه تحقيقها، وخاصة بعد أن استقال الشيخ عبد القادر الأرنؤوط من العمل في المكتب.

في تلك الأثناء كان يزور شعيباً صاحبُه الشيخ صبحي السَّامرَّائي، وهو ممن له ولعٌ بالمخطوطات، وكان على جناح سفر إلى تركيا، فرغب إليه شعيبٌ أن يصوِّر له من مكتباتها نسخة من الكتاب، فاستجابَ الشيخ صبحي، وأرسل له مصورة عن نسخة محفوظة في مكتبة الفاتح باستانبول، على غاية من النفاسة، بيد أنها ناقصة لاتشتمل إلا على ثلاثة أرباع الكتاب.

وكان الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع قد أرسل منذ زمن نسخة يمانية الأصل، فُقِدَ منها جزؤها الأخير، والخطأ فيها قليل، مشاركة منه في نشر هذا السِّفْر العظيم.

إضافة إلى جزء صوِّر من المكتبة الأحمدية بحلب، وجزأين صوِّرا من مكتبة الأوقاف بحلب.

وعلى تلك النسخ انكبَّ شعيبٌ على تحقيق الكتاب، متخذاً من نسخة الفاتح الأصل الذي اعتمد عليه.

وبينما كان منهمكاً في تحقيقه نُمي إليه أنَّ الأستاذ الشاويش لا يرغب في وضع اسمه على الكتاب، وكان يظن أنه قد تجاوز هذا الأمر، وخاصة بعد عمله في تحقيق «مسند أبي بكر»، فاعتراه غضبٌ على هذا التآمر لإضاعة جهده، فاحتجز الأجزاء التي أنجزها، ورفض أن يدفعها للطبع.

وجاءه الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ ليبحث معه هذا الأمر، ثم اصطحبه إلى مكتبة الفتح، وجلسا إلى صاحبها الأستاذ عيد البُغا، وكان مكلَّفاً من قبل زهير حلَّ هذا الخلاف.

وجُوبه شعيبٌ بالحكم المبرم الذي أعلنه عيد البغا، قبل أي حوار قائلاً: هذا الكتاب هو لزهير الشاويش، وهو حرٌّ في أن يضع اسمك عليه، أو أن يضع اسمه عليه.

فانتفض شعيب من هذا الحكم الجائر، وهذه اللهجة الجافة، وقال بامتعاض: لا، ليس حراً، وأنت لا تصلح أن تكون حَكَماً بيننا. وهمَّ بالنهوض، فالتفت إليه الأستاذ النَّفَّاخ يهدِّئ من غضبه، ثم قال للأستاذ عيد البُغا: هذا لا يصح، الشيخ اشتغل بهذا الكتاب، ومن حقِّه أن يوضع اسمه عليه. فتمتم عيد البغا، وهو يهز رأسه في حيرة: سنرى ما سيكون!

واتفقوا على أن يسافر شعيبٌ وعيد البُغا إلى زهير في عمَّان، وأن يجتمعا به، فسافرا واجتمعا، وكان شعيبٌ جازماً في قوله لزهير: أنا سأحقِّق هذا الكتاب، وسيوضع اسمي عليه، لأنَّ الكتاب لابدَّ له من مسؤول علمي، وأنا وحدي أتحمل مسؤوليته، أما أنت فإنك لم تخطَّ فيه كلمة واحدة، ولستَ بقادر على إنجازه.

وأمام هذا الإصرار البات رأى زهير أن يلج إلى ما يريد من بابٍ آخر، فقال لشعيب في استعطاف: أرجو أن توافق على كتابة اسمي إلى جانب اسمك في الجزء الأول منه فقط، حفظاً لحقوقي

المادية. وكان زهير يعتقد أنه إذا أفرد اسم شعيب على الكتاب، فسيغدو الكتاب من حقه، ولربما انفرد في المستقبل بإعادة طباعته، ولأن شعيباً لم يكن يهمه أمر المال، قال له: إذا كان ذلك من أجل حقوقك المادية، فلا مانع لدي.

ورجع شعيبٌ إلى دمشق، ودفع الأجزاء الأربعة التي أنجزها للطبع في بيروت، مذيلاً مقدمة الكتاب باسميهما، مطمئناً إلى اتفاقه مع زهير، بيد أنه فوجئ، وقد وقف مصادفة على تجارب طبع الغلاف، باسم زهير إلى جانب اسمه في الأجزاء الأربعة، خلافاً للاتفاق، فشعر بالخديعة، وتآكله الغضب.

وحاول الشيخ ناصر الدِّين الألباني أن يهدِّئ من ثائرة شعيب، فدعاه ذات يوم للغداء في بيته، إثر عودته من زيارة لزهير في بيروت.

في تلك الجلسة تطرَّق الشيخ ناصر لقصة كتاب «شرح السنة»، فقال له شعيب قاطعاً كل حوار: يا شيخ، أنت تعرف الحقيقة، هذا تلميذك، وعليك أن تردَّه عن تعدِّيه. فقال الشيخ ناصر: أنا نبهته إلى ذلك. فقال شعيب: أنا تحت سمعك وبصرك في المكتبة الظاهرية، هل رأيت زهيراً يحقق الكتاب معي؟ فقال الشيخ ناصر: هكذا يريد زهير. فقال شعيب: هو يريد، ولا يصح إلا ما أريده أنا.

ولم يكن شعيبٌ يبالي بما سيكون، فمخطوطات الكتاب مع الأجزاء التي أنجزها في حوزته، ولا يستطيع زهير أن يصل إليها،

ومن ثَمَّ اضطر زهير أخيراً للرضوخ لما يريده شعيب، فوافق على إفراد اسم شعيب فيما بقي من أجزاء الكتاب.

وتحت ظروف قاهرة، اضطرَّ شعيبٌ أن يكتب كارهاً حسماً للخلاف مقدمة للجزء الخامس من الكتاب، يقول فيها: «وبعد، فقد سبق أن ذكرنا في المقدمة أن العمل في تحقيق هذا الكتاب كان مشاركة بيني وبين الأستاذ الأخ محمد زهير الشاويش، صاحب الفضل في إخراج هذا الكنز النفيس بما أنفق عليه من جهد مادي وأدبي. أما منذ الجزء الخامس فقد انفردت بالتحقيق كله، يساعدني بعض من يعمل في المكتب الإسلامي في المقابلة وتصحيح تجارب الطبع...».

خطَّ شعيبٌ هذه الكلمات، وهو يحسُّ أن علاقته بزهير الشَّاويش قد أصيبت بمقتل، وما زالت تنزف حتى سنة ١٩٧٧م/ ١٣٩٧هـ مع فراغ شعيب من تحقيق الجزء الأخير من كتاب «شرح السُّنَّة»، حيث لملم أوراقه، مستقيلاً من المكتب الإسلامي، وليس في جيبه إلا راتبه الذي تقاضاه في نهاية ذلك الشهر.

❑❑❑

نحو تحقيق التراث

مؤسسة الرسالة والانطلاقة الكبرى

[١]

ويجد شعيبٌ نفسه مرة أخرى عاطلاً عن العمل، فيتدبَّر نفقة عياله من بيع بعض كتبه، وكان صاحبه القديم الأستاذ عبد العزيز رباح ـ وقد غدا مدرِّساً للعربية في ثانويات دمشق، وعنه تلقى مبادئ التحقيق ـ قد افتتح داراً للنشر بمساعدة أحد الأغنياء مع زميل له هو الأستاذ أحمد يوسف الدقاق، هي دار المأمون للتراث، فراح شعيب يقضي بعض وقته فيها.

وتشجيعاً لهذه الدار الناشئة، ومؤازرة لصاحبه عكف شعيبٌ على تحقيق كتاب «رياض الصَّالحين» للإمام النَّووي، ليكون باكورة منشوراتها.

وفيها تعرَّف شعيبٌ إلى الأستاذ حسين أسد الدَّاراني، وهو مدرِّس كذلك للعربية في ثانويات دمشق، كان يأتي إليها زائراً لزميليه عبد العزيز وأحمد، وقد أيقظت أحاديثُ شعيب اهتمامَه بالتراث، وكان بعيداً عنه، فطفق يقتني كتبه بإرشاداته وتوجيهاته، ثم تتلمذ عليه مِنْ بعدُ في تحقيقه.

* * *

وما كاد شعيبٌ يفرغ من تحقيق «رياض الصَّالحين» حتى دُعي للعمل في كتاب «زاد المعاد» لابن القيِّم.

كان الأستاذ رضوان دعبول ـ وهو صاحب دار للنشر هي مؤسسة الرِّسالة ـ قد اشترى حقوق طبع هذا الكتاب من مكتبة البيان لصاحبها بشير عيون، وكان الشيخ عبد القادر الأرنؤوط هو من تولى تحقيقه له، فرأى الأستاذ رضوان أن يعيد الشيخ عبد القادر النظر فيه قبل دفعه للطبع، فاقترح عبد القادر عليه أن يشاركه في ذلك صديقه الشيخ شعيب، فأجابه إلى ذلك، واستأجر لهما مكتباً في الحلبوني بجوار مكتب دار المأمون، كان يشغله من قبل الخطاط البارع عثمان طه.

وانكبَّ الشيخان شعيب وعبد القادر على مراجعته، وقد ظنَّنا أنَّ مراجعته لن تستغرق سوى شهرين، بيد أنَّ شعيباً وجد مِنْ بعد أن المراجعة فيه لا تكفي، بل لابد من إعادة تحقيقه من جديد، وكان الشيخ عبد القادر، وهو المشغول بأعباء الدعوة من إمامةٍ وخطابة، وإصلاح بين الناس، تصرفه عنه صوارف، فوقع عبء إتمام تحقيقه على شعيب، فلم يفرغ منه إلا بعد نحو سنة وأربعة أشهر.

❑❑❑

[٢]

ما كاد شعيب يضع قلمه من تحقيق كتاب «زاد المعاد» لابن القيم في نحو منتصف عام ١٩٧٨م/ ١٣٩٨هـ حتى رغب إليه الأستاذ رضوان دعبول أن يتابع عمله في مؤسسة الرِّسالة، قائلاً له: منذ زمن وأنا أنتظر استقالتك من المكتب الإسلامي كي تعمل في مؤسستي، وقد حانتِ الفرصة الآن.

كان الأستاذ رضوان دعبول أستاذاً للرِّياضيات، وله اهتمامٌ بالنشر مذ كان طالباً في جامعة دمشق، وقد افتتح مؤسسة الرسالة في بيروت في سنة١٩٧٠م/ ١٣٩٠هـ، ومن أوائل ما نشر فيها كتاب «تعريف عام بدين الإسلام» للشيخ الأديب علي الطنطاوي، وكتاب «الحلول المستوردة» للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي. وأكسبه ذلك في عالم النشر سمعة طيبة لحُسْن انتقائه، بيد أنه كان مقتصراً في منشوراته على الدراسات الإسلامية المعاصرة، ولم يدخل عالم التراث إلا مع نشره «زاد المعاد»، ومن ثَمَّ أطلق يد الشيخ شعيب في اختيار الكتب التراثية التي يودُّ تحقيقها.

فكان من أوائل ما اختار الشيخ شعيب تحقيق كتاب «سِيَر أعلام النُّبلاء»، تلك المَعْلمة التاريخية لمؤرخ الإسلام الإمام الذهبي، وكان يسعى منذ زمن لتحقيقه.

وكان يلتفُّ حول الشيخ شعيب في تلك الأيام ثُلَّة من طلبة العلم النَّابهين ممن تعرَّف إليهم في المكتبة الظاهرية، منهم الأساتذة: محمد حسان الطيان، ويحيى ميرعلم، وأحمد حمامي، ومأمون الصَّاغرجي، وإبراهيم الزيبق ـ كاتبُ هذه السطور ـ وبعض من طلبة كلية الآداب في جامعة دمشق ممن أنهى دراسة الماجستير ويحضِّر للدكتوراه، منهم علي أبو زيد، وصالح السمر، إضافة إلى من قدم إلى مكتب مؤسسة الرسالة للعمل معه، كالأستاذ الشيخ محمد نعيم العرقسوسي، وأخيه الأستاذ رضوان، فوزَّع الشيخ شعيب على بعضهم أجزاء الكتاب لتحقيقها.

وسبق لمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة أن قرَّر طبع هذا الكتاب بإشراف الدكتور طه حسين، وصدر منه ثلاثة أجزاء عن دار المعارف بمصر، الأول بتحقيق د. صلاح الدِّين المنجد، والثاني بتحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، والثالث بتحقيق د. محمد أسعد طلس.

فآثر الشيخ شعيب أن يستأنف تحقيق الكتاب من الجزء الرَّابع، ظنًّا منه أن هؤلاء الأعلام قد بلغوا في فن التحقيق شأواً بعيداً، ولا يمكن الاستدراك على عملهم.

وكلَّف تحقيقَ ذلك الجزء الأستاذ مأمون الصاغرجي، وتولى هو تحقيق الجزء الخامس، أما الجزء السادس فقد تولى تحقيقه الأستاذ حسين أسد، ثم تتابعتِ الأجزاء.

وكلَّف المحققين نَسْخَ أجزاء الكتاب، وعيَّن لكلٍّ واحد منهم يوماً في الأسبوع يأتي فيه إلى مكتب المؤسسة لمقابلة ما نسخ معه، فكان شعيبٌ يمسك أصل النسخة الخطية، والمحقق يقرأ، وهو لا يسهو ولا يغفل، يبيِّن المبهم، ويوضح الخفي، ويصرف الوقت الثمين في تدقيق لفظ أو ضبط حركة، وكثيراً ما كان يقول للمحقق: علِّق على هذا الخبر أو اترك التعليق لي. وكان لهذه المقابلة فائدة عظمى في تدارك السقط والتحريف اللَّذين وقعا في المنسوخ، والاهتداء إلى معرفة أسماء الأعلام على الوجه الصَّحيح، فإن كثيراً منها جاء في الأصل مهملاً غير منقوط.

ثم كان شعيب يقوم بتخريج جميع الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب على كثرتها وَفْق الأصول والقواعد المتَّبعة في علم مصطلح الحديث.

* * *

واعترضته مشكلة في تحقيق الجزء الرَّابع، لعلها كانت وراء توقف معهد المخطوطات العربية عن متابعة إصداره، إذ كان في أصل نسخة أحمد الثالث ـ وهي النسخة المعتمدة في تحقيقه ـ خَرْم في نحو ثمان ورقات، يبدأ من ترجمة سعيد أخي الحسن البصري، وحتى نهاية ترجمة أنس بن سيرين، وقد سدَّ الشيخ شعيب هذا الخرم من نسخة مساعدة، بَيْدَ أنها نسخة مؤوفة، فكان على خبرته وصبره لا ينجز قراءة صفحة منها إلا بعد ساعات طوال يقضيها في

مكابدة تهجِّي كلماتها، وكشف غامضها، مستعيناً بمعرفته بأسلوب الإمام الذهبي في إيراد أخباره.

ولما أنجز من الكتاب جزأه الثامن دفع سائرها للطبع، وكان الأستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ يطلع على العمل أولاً بأول، ويبدي إعجابه به، وذات يوم قال لشعيب: لِمَ لا تحقق الأجزاء الأولى منه؟ فقال شعيب: لقد حققها أعلامٌ كبار مشهود لهم، ولا يمكن الاستدراك عليهم. فقال النفاخ: لا عليك، هؤلاء لا يعرفون ما تعرفون، ابدأ بهذه الأجزاء الثلاثة وحقِّقها.

ومال الشيخ شعيب لرأي الأستاذ راتب، وكان الأستاذ حسين أسد وقد فرغ من تحقيق الجزء السَّادس تشوَّف لتحقيق الجزء الأول، فوافق الشيخ شعيب على مضض، لأن عمله في الجزء السادس لم يبلغ المستوى المطلوب، وقد أتعبته مراجعته، وتكفل تحقيق الجزء الثاني، وشرع الأستاذ مأمون الصَّاغرجي في الجزء الثالث، ثم حال سفره إلى الرَّقة معلماً دون إتمامه، فأكمله الأستاذ محمد نعيم العرقسوسي.

* * *

ولاقى تحقيق كتاب «سير أعلام النبلاء» صدى طيِّباً لدى الباحثين، ونوَّه به د. محمود الطناحي في كتابه القيم «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» عند حديثه عن مؤسسة الرسالة، فقال: «ومن أنفس ما باشرت طبعه كتاب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، وتحقيق الكتاب وإخراجُه جيد جداً.. ويشرف على تحقيق

الكتاب، ويخرِّج أحاديثه الشيخ شعيب الأرنؤوط، جزاه الله خير الجزاء، وتصدَّرت الجزء الأول مقدمة نفيسة عن الذهبي وكتابه للصديق المحقق الدكتور بشار عواد معروف البغدادي الكَرْخي.

وقد استعان الشيخ شعيب الأرنؤوط على تحقيق الكتاب بمجموعة من المحققين، ذوي أسماء جديدة في عالم التحقيق، ولكنهم كشفوا عن خبرة جيدة بفن تحقيق النصوص، وإدراك خباياه.

ولابد من التنويه هنا بفضل ناشر الكتاب ـ ولست أعرفه ـ الأستاذ رضوان دعبول، الذي عرف جلالة الكتاب، وسعى لها سعيها، من الإخراج الجيد، والتأنق في الطبع، والسخاء على المحققين، وموالاة طبع أجزاء الكتاب، ولو لم يكن في هذا العمل إلا جرأته عليه واقتحام لجَّته، لكان في ذلك ما يدعو إلى الثناء عليه والدعاء له، فإني خبيرٌ بالناشرين، وتجنبهم لمثل هذه الأعمال الموسوعية التي تهز رأس المال هزاً، ولا تأتي بعائد سريع»(١).

❑❑❑

---

(١) هذا الأثر الجميل للكتاب لم يبرح قلب د. محمود الطناحي، رحمه الله، فقد التقيته في القاهرة سنة ١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ في بيت العلامة الشيخ محمود محمد شاكر، وكان يضم ثلة من شيوخ المشتغلين بالتراث في العالم العربي، فلما دخلتُ وعرَّفتُ باسمي، قام من بين الحضور، وعانقني بحرارة، وهو يردد: أنت من فرسان السير! ثم أجلسني إلى جانبه، وآنسني بحديثه في هذا المجلس الجليل..

[٣]

وفي أثناء عمل الشيخ شعيب في تحقيق كتاب «سير أعلام النبلاء»، كان يهيئ لتحقيق كتاب «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»، وقد أحضر له الأستاذ أكرم العلبي نسخة مصورة منه من دار الكتب المصرية بالقاهرة، وهي نسخته الوحيدة.

وفي غفلة عن الشيخ شعيب خفَّ حسين أسد إلى الأستاذ رضوان دعبول، صاحب مؤسسة الرسالة، وتعاقد معه على تحقيقه وتخريج أحاديثه، وبما أنه لا سابقة له في تحقيق نصوص حديثية، فقد اشترط عليه الأستاذ رضوان في العقد أن يعين له مراجعاً لعمله.

وقبل شعيب على مضض بهذا الاتفاق حين علم به، فما كان يرغب بتعكير علاقته مع صاحب المؤسسة، ولا سيما وقد عُيِّن هو مشرفاً على تحقيقه ومراجعته.

وكان الأستاذ محمد نعيم العرقسوسي ـ وهو من أبرز المحققين في المكتب ـ قد طلب ذات يوم من الشيخ شعيب أن يعمل في «الإحسان»، بغية التمرُّس في علم الحديث تحت إشرافه،

إذ إن تعلم هذا العلم هو الغاية التي تغياها من وراء عمله في المؤسسة، فوعده الشيخ شعيب أن يسند إليه تحقيق مجلدين من آخر الكتاب.

واستشاط حسين أسد حين علم بهذا، وأسرع إلى مكتب المؤسسة في الصباح الباكر، مستغلاً غياب الشيخ شعيب والأستاذ نعيم، واستولى على ما وجده من أجزاء «الإحسان».

فوجئ شعيب حين قدم إلى المكتب بما حدث، بيد أنه آثر الصمت، إذ كان المجلدان الأخيران في بيت الأستاذ نعيم.

وبعد يومين جاءه حسين أسد إلى المكتب يطلب ذينك المجلدين، زاعماً حاجته إليهما للمراجعة، فعاتبه شعيب على ما بدر منه، قائلاً له: لا حاجة بك إليهما، لأن ابن حِبَّان لا يحيل في كتابه على حديث سابق ولا لاحق، فما كان من حسين أسد إلا أن كشف عما يريد، فقال والغضب بادٍ على محياه: هذا الكتاب لي وحدي، ولا يحق لأحد أن يشاركني فيه.

فقال له شعيب بشيء من الحدة، وقد استفزه كلامه: ومن أعطاك هذا الحق؟

فقال حسين أسد: معي تفويضٌ من صاحب المؤسسة الأستاذ رضوان دعبول بتحقيق هذا الكتاب وحدي.

قال شعيب: هذا التفويض تمَّ دون علمي، والكتاب أنا الذي أتيت بنسخته من القاهرة، فهو لي، ولا يحق لأحد أن يتصرَّف فيه.

ثم طلب بكلام حازم أن يردَّ الكتاب إليه، فقد تعب حقاً من مراجعته له.

وطال النزاع، وحسماً للمشكلة بادر الأستاذ رضوان دعبول بإعطاء حسين أسد مبلغاً من المال اتفقا عليه لقاء عمله في تحقيق ثلاثة أجزاء منه، على ألا تستفيد المؤسسة مستقبلاً من عمله.

وانقطعت العلائق ما بين شعيب وحسين أسد، وافترق الرجلان فراق غير وامق(١).

* * *

وانكبَّ الشيخ شعيب من جديد على تحقيق «الإحسان»، يعاونه فيه الأستاذ محمد نعيم العرقسوسي، مع متابعة تحقيقه وإشرافه على «سير أعلام النبلاء»، بيد أن ظروفاً اضطرته إلى مغادرة دمشق في أوائل سنة ١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ، والإقامة في عمان، نشداناً لراحة البال.

وهناك افتتح له الأستاذ رضوان دعبول مكتباً للتحقيق، استأنف فيه شعيب ما بدأه في دمشق، فأتم تحقيقه وإشرافه على «سير أعلام

---

(١) ترددت كثيراً قبل أن أخط كلمة في هذا الموضوع، إذ لا كبير فائدة فيه للقارئ، ولولا اللغط الذي أثاره الأستاذ حسين أسد حول عمل الشيخ شعيب في «الإحسان»، لما ذكرته.

النبلاء»، ثم أكمل تحقيق «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»، وشرع من بعد في تحقيق «شرح مُشْكل الآثار» للإمام الطَّحاوي، ثم حقق «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ الدمشقي، وكلها أعمالٌ جليلة.

بيد أن إنجازه العظيم كان تصدِّيه لتحقيق «مسند الإمام أحمد ابن حنبل»، وهو من أعظم دواوين السنة المطَّهرة.

❑ ❑ ❑

[٤]

كان ذلك في أوائل سنة ١٩٩١م/ ١٤١١هـ، وقد استوى له المنهج، وزادت تجربته في خدمة الحديث الشريف غِنًى وعمقاً، عبر نحو عشرين سنة قضاها عاكفاً على دواوينه باحثاً ومخرِّجاً، ابتداء من تحقيقه «مسند أبي بكر الصِّدِّيق» للإمام المروزي في سبعينيات القرن الماضي، مروراً بتحقيقه «شرح السنة» للإمام البغوي، ثم تحقيقه «الإحسان في تقريب صحيح ابن حِبَّان»، ومن بعده تحقيقه «شرح مشكل الآثار» للإمام الطحاوي.

وكان قد غَبَرَ زمانٌ كان المعوَّل في «مسند الإمام أحمد ابن حنبل» على الطبعة الميمنية ذات الأجزاء الستة التي طبعت في مصر سنة ١٨٩٥م/ ١٣١٣هـ، هذه الطبعة التي فشا فيها التحريف والتصحيف والسَّقْط واضطراب الأسانيد، وقد جعل ذلك الاستفادة منها قاصرة، وظلت قلوبُ محبِّي السُّنَّة تهفو لخدمة هذا الأثر الجليل حتى نَهَد له منذ نحو ستين عاماً عالمٌ كبير، ورائدٌ من روَّاد علم الحديث هو الشيخ العلامة أحمد محمد شاكر، فحقق منه نحو ثلثه في خمس وعشرين سنة، بدأها نحو سنة ١٩٣٠م/ ١٣٤٩هـ، حتى قبيل وفاته سنة ١٩٥٨م/ ١٣٧٧هـ، وتعثَّرتِ الجهود

بعده ما بين إكمالٍ لعمله على غير منهجه، أو إعادة تنضيد الطبعة الميمنية بحرف جديد وورق أبيض مع المحافظة على ما فيها من أخطاء وأوهام!..

وبقي «المسند» ينتظر من ينهض لخدمته حتى تهيأتِ الأسباب للشيخ شعيب، وأولها توافر نُسَخ خطية نفيسة منه، لم تتوافر لغيره، قرأها وعارضها على أصول جياد علماءُ كبار، وأعني بذلك نسخة العلامة المحدِّث عبد الله بن سالم البصري المكي، المتوفى سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢٢م، ذلك العالم الجليل الذي عُرف في عصره على تأخره بدقة ضبطه وإتقانه، وعنايته بالسُّنَّة، فقد جمع «المسند» بعد تفرُّق أجزائه، وصحَّح منه نسخة صارت كعبة لمن أمَّها ـ كما وصفها الشيخ أحمد بن إدريس الصَّعيدي المكي ـ وقد نقل عنها السادة العلماء نُسَخاً سارت في الآفاق.

وكان ابنه سالم قد أرسل نسخة منه إلى مصر، وعلى هذه النسخة اعتمد الشيخ شعيب في تحقيق «المسند»، بيد أنه لم يُعثر إلا على مجلدين منها، أما الثالث فلم يصل إلينا بعد.

واطَّلع كذلك على النُّسَخ التي كانت تضمُّها المكتبة الظاهرية بدمشق، وهي نسخ متقنة، قرأها شيوخ المقادسة في الصَّالحية على المُسْنِد المعمَّر حنبل بن عبد الله المتوفى سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م، وهو آخر رواة «المسند» عن ابن الحُصَيْن، الذي اشتهر «المسند» من روايته، وذاع في جميع البلدان.

إضافة إلى نُسَخ أخرى وصفت في مقدمة الجزء الأول من «المسند».

* * *

حين توافرت هذه النسخ المتقنة، وصحَّ عزم الشيخ شعيب على التصدِّي لتحقيقه، رغب إليّ أن أشاركه في هذا العمل الجليل، فقبلتُ على تهيُّبٍ له، وانضممتُ شاكراً إلى فريق العمل الذي استخلصه الشيخ لنفسه، وهو مؤلفٌ من الصديق الأثير الشيخ محمد نعيم العرقسوسي، والأخ الأستاذ عادل مرشد.

وبروح جماعيةٍ ألَّف بين قلوبها الشيخ شعيب بصبرٍ وأناة جلسنا أياماً، ونحن نجهد في البحث عن منهج قويم لتحقيقه، حتى تبدَّت لنا ملامحُ هذا المنهج، فسرنا على هداه، ومن أهم معالمه:

مقابلة النسخ الخطية مقابلة دقيقة، وإثبات الفروق الهامة منها، والإشارة إلى روايات هذه الفروق إن وجدت، ثم ضبط النص من بعدُ ضبطاً تاماً مع ما يُشْكل من أسماء الرواة.

وساعدنا في ذلك أتمَّ مساعدة حاشيةٌ نفيسة للعلامة السِّنْدي، شرح فيها «مسند الإمام أحمد»، وضبط كلماته ضبط حروف، ووجَّه قراءاته بما تقتضيه قواعد العربية، ونثر فيها فوائد فقهية أزالت اللَّبْس عن كثير من معانيه.

أما الأسانيد فقد عرضناها على كتاب «إطراف المسند المُعْتلي بأطراف المسند الحنبلي» للحافظ ابن حجر، وقد أفادنا في تقويم

الأسانيد، وإصلاح خللها، وثمةَ خللٌ تسرَّب إلى كتاب «الإطراف» نفسه، أبقيناه على حاله، واجتهدنا في تقويمه في تعليقنا عليه.

والأسانيد التي رواها الإمام أحمد، ولها طرقٌ في الكتب الستة، عرضناها على كتاب «تحفة الأشراف» للحافظ المِزِّي، ومن ثَمَّ تمَّ لنا ـ بحمد الله ـ الاطمئنان التام إلى سلامة الأسانيد والمتون.

أما الحكم على الأحاديث، فقد اجتهدنا ما وسعنا الاجتهاد في الحكم عليها بما يليق بها من صحة أو حُسْن أو ضعف، معتمدين في ذلك على أقوال أئمة الجرح والتعديل في الراوي، دارسين اتصال السند خوف تدليس أو انقطاع، معيِّنين الراوي إن كان مبهماً أو غير منسوب، مستقصين ما أمكن أقوال الأئمة في إعلاله إن كان مُعَلَّا، ثم معارضته بسائر الروايات خوف شذوذ أو نكارة فيه.

وقمنا ـ لما يقتضيه المنهج العلمي ـ بتجميع أطراف الحديث بأسانيده ومتونه في «المسند»، ودراستها معاً للحكم عليها، وعزَّزنا ذلك بالتماس شواهد له، وتوسعنا بسرد أحاديث الباب.

ومع ذلك يبقى في الحكم على الحديث تفاوتٌ في النظر ما بين المشتغلين فيه، إذ هو أمرٌ اجتهادي، يؤجر فيه المصيب والمخطئ على السواء إن استفرغا الجهد في الوقوف على الصَّواب.

وقد تبين لنا أخطاءٌ وأوهام وقع فيها من سَبَقنا إلى دراسة حديث من أحاديثه فيما نشر من دواوين السُّنَّة، فنبهنا إلى بعض هذه الأوهام والأخطاء التي لا يحسن السكوت عنها، بعبارة مهذبة، متأدبين ما استطعنا بآداب الإسلام في الحوار، منزهِّين كتب السنة عما لا يليق بها.

وبعد، فما ندعي لعملنا الكمال، هيهات، فمن ذا الذي يعرى من الوهم؟ ولا سيما أن كتاباً كبيراً كالمسند يضم نحو ثمان وعشرين ألف حديث مع مكرَّراته لا يمكن أن يحاط به إحاطة تامة في أثناء العمل به، إذ دون ذلك صعوبات جمةٌ لا يعرفها إلا من كابدها.

❑❑❑

[٥]

على هدي هذا المنهج الذي استلهمنا فيه خبرةَ الشيخ شعيب وتجربته، انكببتُ وصديقي الأثير الشيخ محمد نعيم العرقسوسي على دراسة أحاديث المسانيد التي وُكِلَ إلينا تحقيقها، فكنا نقضي الساعات الطوال نتحاور في الحكم عليها، مستقصين لها ما أمكن من المتابعات والشواهد، قبل أن نخطَّ حرفاً في التعليق عليها.

وكان يساعدنا في تجميع طرقها والتماس شواهدها إخوةٌ كرام، لولا جهودهم المباركة لما أنجز هذا العمل الكبير في ذلك الزَّمن القصير، وقد ذُكرت أسماؤهم في «المسند» اعترافاً بفضلهم.

وكنا كلَّما انتهينا من تحقيق مسند من تلك المسانيد شَدَدْنا الرِّحال إلى شيخنا شعيب في عمان، فنمكث في مكتبه نحو أسبوع أو أشفَّ؛ الشيخ نعيم عن يمينه، وكاتب هذه السطور عن يساره، ناشرين أوراقنا بين يديه، فيقرأ بإمعان تعليقنا على كلِّ حديث، ويتتبع ما كتبناه، ويناقشنا فيما ذهبنا إليه من أحكام، مسدِّداً لها بثاقب بصره، ومقيماً منآدها بعلمه الغزير، وتواضعه الجم.

ويستخفه الطرب أحياناً لبعض تعليقاتنا، فيهزُّ رأسه مستحسناً لها، ومشجعاً لنا.

وأذكر مرَّة أن تعليقاً أعجبه في حكمنا على الحديث رقم (٣٧١٢) من مسند عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، إذ في إسناده أبو سلمة الجُهَني، وهو أحد المجاهيل، فحكم الدَّارَقُطْني في «علله» على إسناده بالضعف، وتابعنا الدارقطنيَّ على حكمه، أما من سبقنا من المعاصرين في الاشتغال بهذا الحديث كالشيخ العلامة أحمد محمد شاكر، والشيخ ناصر الدِّين الألباني، فقد أخطأا في تعيينه، وذهبا إلى أن أبا سَلَمة الجُهَني هذا هو موسى الجُهَني الرَّاوي الثقة، فحكما على إسناده لذلك بالصحة، وتابعهما شيخنا الشيخ شعيب في «الإحسان».

ولما تَتَبَّعْنا ترجمة أبي سلمة الجُهَني هذا، وسبرنا أقوال الأئمة فيه، ودرسناها دراسة وافية دقيقة، تبيَّن لنا أن أئمة الجرح والتعديل يفرِّقون بين أبي سلمة الجُهَني، وموسى الجُهَني، وأنهما راويان، وقد وَهِلَ من جعلهما واحداً.

قرأ شيخنا تعليقنا المطوَّل على هذا الحديث، وأبدى استحسانه له، ثم أمسك بالقلم، وشرع يكتب تحت تعليقنا، وكان في غُنْية عن الكتابة، لأننا من بحر علمه نغترف: «قال شعيبٌ ـ كان الله له ـ: وهذا التحقيق النفيس الذي انتهى إليه صاحباي الشيخ نعيم والأستاذ إبراهيم في التفريق بين أبي سَلَمة الجُهَني وبين موسى الجهني،

وقد وافقتُهما عليه، واقتنعتُ بصحته يلغي الخطأ الذي وقع مني في تعليقي على ابن حِبَّان، حيث تابعتُ فيه من تقدَّمني ممن ينتحل صناعة الحديث، فجزمت بأن أبا سلمة الجهني هو موسى الجهني الثقة، فيستدرك من هنا».

وهذا من أخلاق العلماء الكبار حقاً.

ولم يكن يبدي رأيه فيما كتبناه لنأخذ به، بل لنحاوره فيه حتى نصل معاً إلى عين الصَّواب، حوار هادئ رزين، يخاطب العقل والفهم السليم محفوفاً بالدليل، بعيداً عن التعصب والهوى.

ونصدر عنه، وقد ازددنا بصيرة في فهم هذا العلم الجليل، بما كشف لنا الشيخ من أسراره ما لم نكن نعرف، ونطوي الطريق وما لنا من حديث إلا فهمه الدقيق، وعلمه الغزير، وحنوّه البالغ.

❑❑❑

[٦]

امتدَّ العمل في تحقيق «مسند الإمام أحمد ابن حنبل» نحو عشر سنين، حتى إذا فرغ منه الشيخ شعيب في سنة ٢٠٠١م/ ١٤٢١هـ تاقت نفسه إلى استكمال مشروعه في خدمة السُّنَّة النبوية المطهرة، وذلك بتحقيقه الكتب الستة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهي كتبٌ على جلالتها لم تلق من المشتغلين بالسُّنَّة الاهتمام اللائق بها.

وكانت قد توافرت لديه نسخ جياد لها، أتحفه بها الصديق الأثير المحقق الشيخ محمد بن ناصر العَجْمي ـ ريحانة الكويت ـ فانكبَّ الشيخ على إخراجها الإخراج المتقن، وصدرت تباعاً: «سنن أبي داود»، و«الجامع الكبير» للترمذي، و«السنن» لابن ماجه، ثم «الجامع الصحيح» للبخاري، وكان قد أشرف من قبل على تحقيق «السنن الكبرى» للنسائي، ولم يبق عليه منها إلا «صحيح مسلم»، أرجو أن يتوفَّر على تحقيقه، وهو الآن ـ أمتع الله به ـ يضع اللمسات الأخيرة على قاموس السنة «فتح الباري» لابن حجر.

* * *

وكان قد قام بالاستدراك على كتاب الحافظ ابن حجر «تقريب التهذيب»، وهو في رواة الكتب الستة.

ورجال «التقريب» على ثلاث طبقات:

أوَّلها: متفق على توثيقهم، وهؤلاء لا يد لابن حجر في توثيقهم، إنما هو ناقلٌ له فحسب.

وثانيها: متفق على تضعيفهم، وهؤلاء كذلك لا يد لابن حجر في تضعيفهم، إنما هو ناقل له فحسب.

وثالثها: المختلف في توثيقهم وتضعيفهم، وعليهم مدار الاجتهاد، وابن حجر صاحبُ قول فيهم، اعتمده كثيرٌ من المحدِّثين المتأخرين، ولم يوافقه الشيخ شعيب في كثير مما قاله، فقد كان خلال عمله في الحديث الشريف يعلق على نسخته من «التقريب» على أحكامٍ أطلقها ابن حجر فيهم، وكان الشيخ شعيب يستند في تعليقاته تلك إلى منهج علمي في سَبْر حال الرواة ومروياتهم، وقد تجمَّع لديه من هذه التعليقات جملة وافرة، فأحبَّ أن يستوعب ما فاته منها، فأكبَّ من جديد على كتاب «التقريب»، يستعرض فيه أقوال ابن حجر في كل ترجمة، فأحياناً كان يوافقه، وأحياناً كان يخالفه، مبيناً سبب مخالفته له، حتى إذا تمَّ له هذا العمل أفرد تعليقاته عليه في كتاب سمَّاه «تحرير التقريب».

ويعتقد الشيخ شعيب أن كتابه هذا هو من أفضل كتبه، لأنه صحَّح فيه مسار المنهج عند المحدِّثين، وهذا الحكم متروكٌ للزمن

ليقول فيه كلمته الأخيرة، فكثيرٌ من المشتغلين بالحديث الشريف لم يتقبَّلوا هذا الكتاب بقبول حسن، ولهم عليه مؤاخذات، وحسبُ الشيخ شعيب أنه اجتهد فيه، ولكل مجتهد أجرٌ، سواء أصاب أم أخطأ.

وقد شاركه في هذا العمل صاحبه الدكتور بشار عواد معروف، ووضعا للكتاب مقدمة ضافية في منهج التصحيح والتضعيف، وعلم نقد الرجال.

❑❑❑

معالم مدرسة الشيخ شعيب
في التحقيق

[١]

ولكي نتعرف على ما قدَّمه الشيخ شعيب في عالم تحقيق التراث، لا بدَّ لنا من إلقاء نظرة عجلى على فن التحقيق قبله.

إذ لم يكن لتحقيق التراث في الشام جذورٌ متأصِّلة كالتي كانت له في مصر، والذين عملوا فيه ـ على قِلَّتِهم ـ لم يكن عندهم منهج واضح له، ومن أوائل من تصدى له الأستاذ أحمد عبيد، صاحب المكتبة العربية، والشاعر محمد البزم، والأستاذ محمد كرد علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، والأستاذ عز الدِّين التنوخي، والأستاذ محمد سعيد الأفغاني، والشيخ محمد أحمد دهمان، وقد عرف بتحقيقاته التاريخية، ود. صلاح الدِّين المنجد، وهو من أوائل من وضع قواعد علمية له.

ولعل أستاذنا العلامة أحمد راتب النَّفَّاخ هو أول من أقام التحقيق في الشام على منهج علمي صارم، متأثراً في ذلك بأعلام المحققين في مصر، وفي طليعتهم العلامة الشيخ محمود محمد شاكر.

وأهم ملامح ذلك المنهج التشبُّع من الثقافة العربية الإسلامية على اختلاف تجلياتها وفنونها، والتمرُّسُ في قراءة المخطوطات، والتمكُّن

من المكتبة العربية، وما تحويه من ذخائر ونوادر، والمعرفة بمنازل الكتب فيها من أصيل ومقلِّد، والتحلي بالصَّبر والأمانة والأناة.

وقد بدأ الشيخ شعيب في التحقيق أول ما بدأ مقلداً، شأنه في ذلك شأن غيره من العلماء، ثم انقاد له المنهج بعد طول ممارسة وخبرة واطلاع على أعمال المحققين الكبار.

بيد أن الخطوة التي خطاها في هذا المجال، والتي ميَّزته عن غيره هي محاولته تكوين طبقة من المحققين، يتمثلون المنهج العلمي له، ليكملوا على هداه إخراج نفائس المكتبة العربية الإسلامية.

وقد تحقق له ذلك مع بداية عمله في مؤسسة الرِّسالة، فقد كان يحيط به وقتئذٍ ثلة من طلبة العلم، فاختار منهم من تفرَّس فيه القدرة على الغوص في هذا الفن، ومتابعة المسيرة فيه، فراح يتعهدهم بعنايته، ويفيض عليهم من علمه وخبرته، وما زال يتدرَّج بهم حتى غدا كل واحد منهم متميزاً في عمله، مشهوداً له بالإتقان والأصالة، ونشأت على مدار الأيام بين الشيخ شعيب وأصحابه ـ كما يحب أن يدعوهم ـ تلك الوحدة، بل تلك المدرسة المتكاملة في التحقيق منهجاً وسيرة.

وهي تقوم على:

١ ـ الاعتماد على الأصول الخطية في التحقيق.

٢ ـ الدقة في العمل.

٣ ـ تعقب المتقدمين بأسلوب رقيق، والاعتراف بفضلهم.

٤ ـ غرس حب الاجتهاد في المسائل المختلف فيها، والأخذ بأقربها إلى الصواب الذي يعضده دليل قوي.

أما المسائل الاجتهادية التي لم ترد في كتب المتقدِّمين أو استجدَّت في زماننا، فالاجتهاد فيها جماعي لا فردي.

٥ ـ إخلاء الذهن ـ حين بحث مسألة من المسائل ـ من المذهب المنتمى إليه، وبحثها بعيداً قدر الإمكان عن أية مؤثرات خارجية.

٦ ـ الاعتقاد الصحيح القائم على منهج الاعتدال.

٧ ـ وكان الشيخ شعيب يغرس في ذهن أصحابه أن الخلاف في فهم النص هو من الأمور المشروعة، التي يريدها الشارع ويرتضيها، ويحتجُّ على ذلك بقصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وقوله تعالى فيهما: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾(١).

٨ ـ الرد على المعارضين بأسلوب لطيف محبَّب، والتماس العذر لهم، وعدِّهم مأجورين في خطئهم، إذ النقد إنما هو للإصلاح لا للتهجم على الأشخاص، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾(٢).

❑❑❑

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٠.

[٢]

ولعل ما يوضح ملامح هذه المدرسة ما كتب في منهج تحقيق كتابين جليلين كانا من ثمرتها، هما «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي، و«مسند الإمام أحمد ابن حنبل»، ففي ذينك الكتابين تتجلى معالم ذلك المنهج في التحقيق في فنين أبدع فيهما الشيخ شعيب أيّما إبداع، هما: فن تراجم الرجال، وفن علم الحديث النبوي الشريف.

ولنبدأ في منهج تحقيق كتاب «سير أعلام النبلاء».

١ ـ فقد كانت أولى الخطوات فيه تجزئة مجلداته الأحد عشر إلى ثلاثة وعشرين جزءاً، لأنه يتعذر إخراج المجلد في جزء واحد لكبر حجمه.

٢ ـ دُفع كلُّ جزء إلى الأستاذ الذي سيقوم بتحقيقه، ليتولى نسخه، وقد اتُّبع في النسخ الرسم الإملائي الحديث.

٣ ـ مقابلة المنسوخ بالأصل مقابلة دقيقة متأنية.

وكان الشيخ شعيب يمسك الأصل بيده، ويقرأ منه، والأستاذ الموكل إليه تحقيق الجزء يضبط المنسوخ، ويدوِّن الملاحظات التي يبديها الشيخ.

وكان لهذه المقابلة فائدة عُظْمى في تدارك السَّقْط والتحريف اللذين وقعا في المنسوخ، والاهتداء إلى معرفة الأعلام على الوجه الصَّحيح، لأن كثيراً منها جاء في الأصل مهملاً غير منقوط.

٤ ـ ذُكرت المصادر التي عُنيت بأخبار المترجم، سواء منها التي تقدَّمت عصر الإمام الذهبي، أو جاءت بعده، وقد تُوخِّي في ذلك الاستيعاب في حدود ما تيسَّر لهم منها.

٥ ـ روجعت نصوص الكتاب وأخباره على الموارد التي نقل منها الإمام الذهبي، بما أمكنهم الوقوف عليه، ما طبع منها وما لم يطبع، وهو عملٌ شاق ومجهد، ولكنه أعان على تدارك ما وقع للمؤلف في بعض الأخبار التي يرويها بالمعنى من سقط أو وهم أو اضطراب، وقد بُيِّن ذلك كله في التعليقات المنثورة في الأجزاء، وما أضيف زيادة على الأصل مُيِّز بوضعه بين حاصرتين.

٦ ـ نُسِّقت مادة الكتاب تنسيقاً يعين على فهم النص فهماً صحيحاً، فقد فُصِلَ كل خبر عن غيره، ومُيِّزت النقول عن التعقيبات، وجُعلت أوائل النقول والأخبار في أول السطر.

٧ ـ تُحرِّي تحرِّياً بالغاً في ضبط النص، وبخاصة الأسماء والكنى والألقاب والأنساب والمواضع والبلدان، وهي أكثر الألفاظ تعرُّضاً للغلط، لأنها ـ كما قال بعض القدماء ـ شيءٌ لا يدخله القياس، ولا قبله شيء ولا بعده شيء يدل عليه، فقد ضبطت وأزيل الاشتباه عنها، بالشكل تارة ـ وهو الأغلب ـ وبالكتابة بالحرف تارة

أخرى، اعتماداً على أوثق المصادر التي تكفَّلت ببيان ذلك، مثل: «الإكمال» لابن ماكولا، و«المشتبه» للإمام الذهبي، و«توضيحه» لابن ناصر الدمشقي، و«تبصير المنتبه» لابن حجر، و«الأنساب» للسَّمْعاني، و«اللباب» لابن الأثير، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«الرَّوض المِعْطار» للحِمْيري.

وما كان من الألفاظ يضبط بوجهين أو أكثر، فقد أُغفل ضبطه إشارة إلى ذلك.

٨ ـ وتولى الشيخ شعيب تخريج الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب ـ وهي كثيرة جداً، ولا سيما في الأجزاء الأولى ـ من دواوين السنة ومصادرها المطبوع منها وما لم يطبع مما أمكن الوقوف عليه، فيذكر الجزء والصفحة التي فيها الخبر، وحين يكون للمصدر أكثر من طبعة يُضيف ذكر الكتاب والباب تيسيراً للقارئ الذي لا تتيسر له الطبعة التي رجع إليها.

ثم أبان عن درجة كل حديث من الصحة وغيرها حسب الأصول والقواعد المتبعة في علم مصطلح الحديث.

ويرى الشيخ شعيب أن تنقيد الرِّوايات والتمييز بين صحيحها وسقيمها أمرٌ تجدر العناية به أكثر من غيره في تحقيق التراث، ولا سيما في عصرنا هذا الذي كاد أن ينقرض فيه هذا العلم، وندر أن تجد من يحسن أن يتولاه، ويصبر على معاناته، فإن كثيراً من الأحاديث والأخبار الضعيفة والموضوعة المبثوثة في كتب التاريخ

والتراجم يتلقَّفها الأدباء والكُتَّاب والخطباء والمدرِّسون على عواهنها، فتدور على ألسنتهم، أو يستشهدون بها في مؤلفاتهم وخطبهم، فيتلقاها عنهم عامة الناس، ويعتدُّون بها، ويعملون بما يستفاد منها، وحدِّث ولا حرج عما تلحقه تلك الأحاديث والأخبار من الضَّرر بجوانب كثيرة في الأمور الاعتقادية والعبادية، والسَّلوكية والفكرية والاجتماعية، وما ينجم عنها من آثار سيئة وانحرافات خطيرة، وتشويه لحقائق الإسلام، وهذا ما دعاه إلى دراسة أسانيد الأخبار في هذا الكتاب، وتنقيد رواتها، ومعرفة ما يصحُّ منها وما لا يصحُّ، وبيان ذلك كله ليتسنَّى للقارئ أن يكون على بيِّنةٍ من أمرها، فيطرح كل ما هو ضعيف منها ويتجنبه، ويحذر من الوقوع فيه.

ومن ثَمَّ يرى الشيخ شعيب أنه ينبغي لكل من يتصدَّى لتحقيق كتاب في التاريخ أو التراجم أو الحديث أو التفسير أن تتحقق فيه مهارة المحدِّث البارع، الخبير بعلل الروايات ومواطن الضعف فيها، وإذا لم يتيسر له ذلك، فليستعن بذوي الخبرة والاختصاص بهذا الفنِّ الشريف.

٩ ـ واشتملت التعليقات على شرح غريب الألفاظ، والتعريف بالمواضع والأماكن، وبيان المصطلحات الحديثية التي استخدمها المؤلف، كالوجادة، والبدل والموافقة وغيرها، والتعريف ببعض أرباب المقالات من الإسلاميين، وتنقيد المؤلف في بعض المواطن التي ترجَّح لدى المحققين أنه قد جانب الصَّواب فيها.

١٠ ـ وضعت أرقام متسلسلة للتراجم الأصلية لكل جزء في بداية الترجمة، وتنتهي الأرقام عند نهاية لكل جزء، ثم يبدأ الجزء الثاني بأرقام جديدة تبدأ من الواحد، وهكذا.

١١. استعمل المؤلف رموزاً جرى المحدِّثون على استعمالها، فكتب من «حدثنا» (ثنا)، وربما حذف الثاء، واقتصر على (نا)، وكتب من «أخبرنا» (أنا) أو (ابنا)، وقد استعيض عن الرمز بإثبات اللفظ بتمامه.

أما الرموز التي استعملها إشارة إلى من روى للمترجم من أصحاب الكتب الستة، فأثبتت كما هي في الجانب الأيسر من عنوان الترجمة، فاستعمل (ع) لأصحاب الكتب الستة، و(٤) لأصحاب السنن الأربعة، و(خ) للبخاري في الصحيح، و(خت) لما استشهد به في الصحيح تعليقاً، و(بخ) لما أخرجه في «الأدب المفرد»، و(م) لمسلم، و(د) لأبي داود، و(ت) للترمذي، و(س) للنَّسائي، و(ق) لابن ماجه القزويني.

وما كان من هذه الرُّموز في معرض سياق الخبر، فقد حذف، وأثبت مكانه الرسم بتمامه.

١٢ ـ صُنع لكلِّ جزء فهرسٌ للمترجَمين كما أوردهم المؤلف، وآخر على ترتيب حروف المعجم، وفي نهاية الكتاب صُنعت فهارس مفصلة تشمل الآيات والأحاديث والأعلام والأماكن والشعر.

❑❑❑

[٢]

أما المنهج الذي اعتُمد في تحقيق «مسند الإمام أحمد ابن حنبل» فكان على النحو التالي:

١ ـ توثيق النص، وذلك بمقابلة المطبوع بالأصول الخطية، وإثبات الفروق المهمة، وقد رمز للطبعة الميمنية في الهوامش بالحرف (م).

٢ ـ ضُبط النص ضبطاً قريباً من التمام، وضبط ما يُشْكل من أسماء الرواة وكناهم وألقابهم ضبط قلم، وربما ضبطت بالحروف في الحاشية.

٣ ـ نُبِّه على ما ظهر من الملاحظات على الطبعتين السَّابقتين: الطبعة الميمنية، وطبعة العلامة الشيخ أحمد شاكر من تحريف وتصحيف وسقط.

٤ ـ حُكم على أسانيده، حيث دُرس رجال إسناد كل حديث فيه، وأشير إلى الأسانيد التي هي على شرط الشيخين، أو على شرط البخاري، أو على شرط مسلم.

وإذا كان بعضهم من رجال البخاري، وبعضهم من رجال

مسلم، قلنا: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وإنما فُعِلَ هذا لبيان أن هذا الإسناد في أعلى درجات الصحة، فقد أطبقت الأمة على تسمية الكتابين بالصَّحيحين، والرجوع إلى حكم الشيخين بالصحة، وأن من احتجَّ به الشيخان أو أحدهما فقد جاز القنطرة، فإن تخريج حديث الرَّاوي في الصحيحين، أو أحدهما، محتجين به هو بمنزلة التصريح بتوثيقه، ولبيان هذا العدد الكبير من الأحاديث الصحيحة التي لم ترد عندهما، ولا عند أحدهما مع أنها مستوفية لشروط الصحة التي اشترطاها في كتابيهما، وليس في هذا تعقب لهما، أو إلزامهما بهذه الأحاديث التي استوفت الشروط التي التزماها، فإنهما ـ رحمهما الله ـ قد صرَّحا بأنهما لم يقصدا استيعاب جميع الأحاديث الصحيحة في كتابيهما.

وقد تُحرِّي في الأعم الأغلب أن يكون القول: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، أو على شرط البخاري، أو على شرط مسلم، مقيداً بمن احتج بهم الشيخان، أو أحدهما في الأصول، وليس ممن خرَّجا له استشهاداً أو متابعة أو تعليقاً، ولا ممن هو موصوف بتدليس أو تخليط، فإنهما ـ رحمهما الله ـ ينتقيان من حديث من تُكُلِّم فيه ما توبع عليه، وظهرت شواهده، وعُلم أن له أصلاً، ومن حديث المدلِّس ما صرَّح بالسماع فيه، ومن حديث المختلط بأَخَرَةٍ ما رواه الثقة عنه قبل اختلاطه.

وإذا كان في السند راوٍ لا يُحتج به لسوء حفظه، أو لكونه رمي بالاختلاط أو التغيُّر أو التدليس، ووقف على متابع له في تلك

الرواية ممن يصلح حديثه للمتابعة، أو كان لمتن الحديث ما يشهد له أطلقنا الصحة أو الحُسْن على ذلك الحديث وفق ما يقتضيه المقام لغلبة الظن أنه بالمتابعة أو الشَّاهد لم يقع لذاك الرَّاوي المجروح تخليط فيه أو غلط أو وهم.

وقد يَنْتَهِضُ إسنادُ الحديث إلى درجة أعلى من درجة الحسن، ولكنه لا يبلغ رتبة الصحيح، فيقال في مثل هذا النوع من الإسناد: إسناده قوي، أو جيد، إشارة إلى أنه فوق الحسن، ودون الصحيح، وهذا الاستعمال متداولٌ بين أهل العلم الذين مارسوا هذا الفن، واختصُّوا به، وصاروا أعلاماً فيه.

وما سوى ذلك فقد حُكِمَ عليه بما يليق بحاله من صحة أو حُسْن أو ضعف، واسترشد بذلك بما أصَّله جهابذة الحديث ونقاده من أصول وقواعد لتوثيق الرِّوايات، وفحص الأسانيد، وتنقيد المتون، فإنهم القدوة في هذا الفن، والمعوَّل عليهم فيه.

وإذا كان في السند راوٍ لم يوجد فيه توثيق ولا تضعيف عن أحد من أئمة الجرح والتعديل، ولكنه مذكور في «ثقات ابن حبان»، فإنه لا يخرج عن حدِّ الجهالة، ولا يقوِّي الشيخ شعيب حديثه إلا بأحد أمرين:

الأوَّل: أن ينصَّ ابن حِبَّان على توثيقه، كأن يقول: مستقيمُ الحديث، أو ثقة، أو صحيح الحديث.

الثَّاني: أن يروي عنه جماعة، ثلاثةٌ فما فوق، ولم يرد عنه ما يقدح في ضبطه، فقد قال الإمام الذهبي في «ميزان الاعتدال»،

في ترجمة مالك بن الخير الزبادي تعليقاً على قول ابن القَطَّان: هو ممن لم تثبت عدالته؛ يريد أنه ما نصَّ أحد على أنه ثقة، وفي رواة «الصحيحين» عددٌ كثير ما علمنا أن أحداً نصَّ على توثيقهم، والجمهور على أن من كان من المشايخ قد روى عنه جماعة، ولم يأتِ بما يُنكر عليه أن حديثه صحيحٌ.

وإذا كان مصدر الحكم على الرَّاوي مستمداً من غير كتاب «تهذيب الكمال» للحافظ المِزِّي، وفروعه، أحيل على المصادر التي نُقِلَ عنها، وأُفيد منها.

٥ ـ خُرِّجت أحاديث «المسند» من الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم، وغيرها من المظان التي تيسَّرت، وباستيعاب قدر الإمكان، وأُشير إلى أماكن وجود الحديث إذا تكرَّر في «المسند»، وبما أن الإمام أحمد يورد الحديث الواحد في مواضع متعددة من طرق مختلفة، فقد خُرِّج كل طريق في موضعه، مع الإشارة إلى أن الإمام أحمد سيورده من طريق كذا، برقم كذا، وإن لم يورده إلا من طريق واحدة مع أن له طرقاً عديدة أُشير إلى تلك الطرق الأخرى عن ذلك الرَّاوي، وفي حال اختلاف الطرق كلها عدا الصحابي راوي الحديث يورد الإسناد بتمامه، أو جزء منه.

وإذا كان للحديث شاهدٌ عند الإمام أحمد أُحيل عليه، فيقال مثلاً: ويشهد له حديث سبق برقم كذا، أو سيأتي، ويُحال حينئذٍ على الصفحة والجزء في الطبعة الميمنية، وإذا لم يكن الشاهد في

«المسند»، فيُخَرّج من المصادر الأخرى مع تبيين حاله عند الحاجة إلى ذلك، فيزداد بذلك حديث الباب قوة، ويخرج عن حدِّ الغرابة.

٦ ـ عُلِّق على بعض المواضع بما يستدعيه المقام، من تفسير لفظ غريب، أو توضيح معنى مستغلق، أو ترجمة بلد أو موضع، أو نقل فائدة لمحها أحدُ الأئمة من الخبر، أو ذكر وقوع نَسْخ في الحديث، أو التنبيه على شذوذ في المتن، أو عِلَّة خفية قادحة، ونحو ذلك. ويحال على المصادر التي نُقل عنها، فأحياناً يُثبت النص المنقول بتمامه في العلة الخفية القادحة، وأحياناً يُلخَّص بحيث يفي بالمراد، ويحقق المبتغى.

ويُذكر أيضاً ما يوقف عليه من قرائن يكون لها تأثيرٌ في حال الراوي، أو في درجة الحديث.

وغير خافٍ على طلبة العلم الحُذَّاق أن صحة السند وحدها لا تكفي لصحة المتن، فإن جواز وقوع الخطأ من الثقة لا خلاف فيه، وهو جائز عقلاً وعادة، وواقع فعلاً وحقيقة، فقد ذكر الخطيب البغدادي في «كفايته» (ص١٤٤ ـ ١٤٥) عن الأئمة سفيان الثوري وشعبة والشَّافعي أنه إذا كان الغالب على الرَّاوي الحفظ، فهو حافظ، فإنه لا يكاد يفلت من الغلط أحد، ويقوي ذلك ويؤكِّده ما قاله الترمذي: وإنما تفاضل أهل العلم بالحفظ والإتقان، والتثبت عند السَّماع، مع أنه لم يسلم من الخطأ والغلط كبيرُ أحدٍ من الأئمة مع حفظهم.

ولهذا اشتُرط في الحديث الصحيح سلامته من الشذوذ والعِلَّة،

وهما يقعان في أحاديث الثقات، قال الإمام أبو عبد الله الحاكم في كتابه «معرفة علوم الحديث» (ص١١٢ ـ ١١٣): وإنما يُعلَّل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل، فإن حديث المجروح ساقط واه، وعلَّة الحديث تكثر في أحاديث الثقات؛ أن يحدثوا بحديث له عِلَّة، فيخفى عليهم علمه، فيصير الحديث معلولاً، والحجة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غير.

وقد قال أهل هذا الفن: إن قول المحدِّث في حديثٍ ما: إسناده صحيح، هو دون قولهم: صحيح، لأنه قد يصح السند، ولا يصح المتن. قال العلامة ابن القيِّم في كتابه «الفروسية» (ص٦٤): وقد عُلِمَ أن صحة الإسناد شرط من شروط صحة الحديث، وليست موجبة لصحة الحديث، فإن الحديث يصح بمجموع أمور، منها صحة سنده، وانتفاء علته، وعدم شذوذه ونكارته.

وقد رَدَّ غيرُ واحد من العلماء الذين يعوَّل عليهم في هذا الباب في القرون المفضَّلة والتي تلتها أحاديثَ غير قليلة من جهة المتن، وحكموا ببُطْلانها ونكارتها وشذوذها.

وتدرك العِلَّة بتفرد الرَّاوي، أو بمخالفته غيره له مع قرائن تنبه المعارف بهذا الشأن على إرسال في الموصول، أو وقف في المرفوع، أو دخول حديث في حديث، أو وهم واهم، وغير ذلك، بحيث يغلب على ظنه، فيحكم بعدم صحة الحديث، أو يتردَّد فيتوقف فيه.

ولا يتفطَّن لعلل الحديث ويكشف عنها إلا العالم بهذا الفن، الماهر فيه، الذي قضى معظم وقته في دراسة كتبه، ومعرفة أقاويل أهل العلم الذين اختصوا به، وصاروا أعلاماً فيه.

* * *

وبعد، فإنَّ لقائل أن يقول: إنَّ تجربة العمل الجماعي في تحقيق الكتب أفادت الشيخ شعيب من جانب، ولم تفده من جانبٍ آخر، فهي قد يسَّرت عليه مراحل العمل في تحقيق الأسفار العظيمة، فهناك من ينسخ، ومن يقابل، ومن يخرِّج الأحاديث والآثار، بل ومن يحكم عليها.

بيد أن في مراجعته للعمل في مراحله كلها، على علمه الغزير وبصره الثاقب، تندُّ عنه بعضُ أخطاء من يعمل معه، فتُنْسَبُ إليه، ولو أن الشيخ شعيباً عمل بالتحقيق وحده، كما هو شأن كثير من العلماء لرأينا المنهج العلمي الصَّارم يتجلَّى في تحقيقاته دقة وإتقاناً، إذ إن من يعرف الشيخ شعيب معرفتي به يلمس مسافة فاصلة بين علمه الغزير، وما يُنسب إليه من تحقيق.

وأقول: إن لكل تجربة أخطاء، غير أنَّ أخطاء هذه التجربة لا تقاس بما حققته من صواب، فلولاها لما تخرَّجت على عينه طبقةٌ من المحققين الأثبات، ولما أبصرتْ هذه الأسفارُ العظيمة النورَ بعد طول ظلام.

❑❑❑

ما بين الشيخين
شعيب الأرنؤوط
ومحمد ناصر الدِّين الألباني

[١]

ولعل من تمام ترجمة الشيخ شعيب أن أجلي موقفه من الشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني، فقد انتهت إليهما في عصرنا مشيخةُ علم الحديث، وكثيراً ما يُقرن بينهما.

وكنت قد بَيَّنْتُ فيما سلف كيف نشأت العلاقة بينهما، وما آلت إليه، ومن حق الأجيال أن تعرف من بعدُ رأي الشيخ شعيب في منهجه ومساره، وهو الذي عاصره، وشاركه اهتمامه في خدمة السُّنَّة المطهرة، دون أن يعني ذلك إساءة له كما قد يتوهَّم بعضُهم، وقديماً كان العلماء يتكلمون في أقرانهم ومعاصريهم إبرازاً للصَّواب، وتجنباً للخطأ، ولم ينكر ذلك عليهم أحد، وهذا ما أباحه الشيخ ناصر لنفسه، أفلا يحقُّ لغيره ما يحقُّ له؟

وقد اتفق لي في زيارةٍ للشيخ شعيب أن سألته عن رأيه في الشيخ ناصر، ما الذي يوافقه فيه ويخالفه؟ وها أنا الآن أنقل جوابه لي كما دوَّنْتُه.

* * *

قال الشيخ شعيب، حفظه الله: ابتداءً أنا لا أنكر أن للشيخ ناصر ـ رحمه الله ـ الفضل في دفع محبّيه وخصومه معاً إلى دراسة

علم الحديث، والإكثار منه، وأستطيع أن أقول: إن الشيخ ناصر الدِّين قد أوجد النشاط الحديثي في بلاد الشام ومصر، وله الفضل في ذلك، أسأل الله تعالى أن يجزيه عن المسلمين خير جزاء، وأن يجعل ذلك في صحيفة أعماله.

غير أنه لم يكنِ السَّبَّاق إلى ذلك، فقد تقدمه بالزمن في مصر الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ أحمد شاكر، وأمثالهما من علماء الأزهر الشريف، وفي الشام الشيخ جمال الدِّين القاسمي، والشيخ محمد بهجة البيطار.

ومن ثَمَّ فهو ليس أول من دعا إلى نبذ التقليد والرُّجوع إلى السُّنَّة، بيد أنه لم يستفد من أسلوب هؤلاء الذين سبقوه، ذلك الأسلوب الهادئ المقنع، بل استخدم مع مخالفيه أسلوباً استفزازياً، يريد من ورائه تحطيمهم لا إقناعهم، وهنا احتدمت المعركة بينه وبينهم، واستعرت بالشتائم لا بالحوار.

ولا أنكر كذلك أن دعوته كانت إلى الكتاب والسُّنَّة، وهذا رائع، ما في ذلك شك، لكنه كان يدعو إلى السُّنَّة كما يصحِّحُها هو، ويريد مما يصححه منها أن يقوم مقام اجتهاد الأئمة المتبوعين، ويكون قوله هو القول الفصل فيما تنازعوا فيه من المسائل.

وهذا لم يتمَّ له، ولن يتمَّ لأحدٍ سواه، لأن الله سبحانه وتعالى رضي لنا هذا الاختلاف المحمود، وأوجد لنا أسبابه التي تفضي إليه، فالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يتلقوا عن أحد غير

رسول الله ﷺ، ومع ذلك وقع الخلاف فيما بينهم في بعض المسائل، وما من مسألة خلافية أخذ بها أحد الأئمة معتمداً فيها على نص إلا وله سلفٌ فيها من الصحابة أو التابعين لهم بإحسان، فالخلاف بدأ مع عهد الصحابة، وهذا ما أراده الله لنا، إذ من ثمراته تنوع ثقافتنا الإسلامية، واتِّساع فهمنا لها، ومن ثم كان فيها مجالٌ رحب للتنافس الفكري والإبداع، ولولا هذا الخلاف لما كانت هذه المؤلفات الهامة التي تملأ مكتباتنا منذ عصر التدوين وحتى الآن.

❑ ❑ ❑

[٢]

وأردف الشيخ شعيب قائلاً: والفن الذي تميز به الشيخ ناصر هو علم الحديث النبوي الشريف، فقد انكبَّ على دراسته سنين طويلة، قاربت الستين عاماً من عمره، بيد أن شأنه فيه شأن غيره من المحدِّثين قبله، يصيبُ فيه ويخطئ.

ما أستغربه منه حقاً أنه قرأ في علم مصطلح الحديث أن الحديث الصَّحيح هو الذي اتَّصل إسنادُه من راويه إلى النبي ﷺ، وخلا من شذوذ أو علة، وهو للأسف لم يلتفت في حكمه على الأحاديث إلى الشذوذ والعلة، ولم يعتدَّ بهما في نقده متن الحديث، فالإسناد طالما صحَّ عنده، فالحديث صحيحٌ، ومن ثَمَّ صحَّحَ أحاديث كثيرة للعلماء كلامٌ في متونها:

١ ـ من ذلك أنه صحح في «مشكاة المصابيح»[(١)]، و«صحيح الجامع الصغير»[(٢)] حديث: **«الوائدة والموؤدة في النار»**، وهو مخالفٌ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾

---

(١) برقم (١١٢).

(٢) برقم (٧٠١٩).

بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[1]، وإنْ حاول أن يؤوِّله بوجه غير مقبول.

٢ ـ وصحح في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»[2] حديث أبي هريرة: «**إن الله خلق التربة يوم السبت**»، وقد رواه مسلم في «صحيحه»[3] كذلك، بيد أن فيه تناقضاً مع القرآن الكريم، وأُعِلَّ الحديث بإسماعيل بن أمية، إذ رواه إسماعيل عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة مرفوعاً.

ورواه إسماعيل كذلك عن إبراهيم بن أبي يحيى، عن أيوب بن خالد، به، وإبراهيم متروك، وقد أسقطه إسماعيل من الإسناد.

وعلَّق البخاري هذا الحديث في «التاريخ الكبير»[4]، عن إسماعيل بن أمية، ونقل عن بعضهم قوله: عن أبي هريرة، عن كعب، وهو أصح.

أي إن هذا الحديث من إسرائيليات كعب الأحبار، بيد أن الشيخ ناصر الدِّين ردَّ على البخاري بقوله: فمن هذا البعض؟ وما محله من الضبط والحفظ حتى يرجح على رواية عبد الله بن رافع؟

ثم يقول: وليس هذا الحديث مخالفاً للقرآن الكريم كما يتوهم البعض؟

---

(١) سورة التكوير: الآيتان ٨ ـ ٩.

(٢) برقم (١٨٣٣).

(٣) برقم (٢٧٨٩) (٢٧).

(٤) (١/٤١٣ ـ ٤١٤).

ثم لا يذكر شيئاً يدلِّل فيه على نفي هذه المخالفة!.

٣ ـ وصحح في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»[١] حديث: **«أُمَّتي أُمَّة مرحومة، ليس عليها عذابٌ في الآخرة، وإنما عذابها في الدنيا»**.

وحاول تعليل تصحيحه بقوله: واعلم أن المقصود بالأمة هو غالبها، للقطع أنه لابد من دخول بعضهم النار للتطهير.

وهذا الحديث ضعفناه في «مسند الإمام أحمد»[٢]، وأشار إلى ضعفه شيخ الصنعة الإمام البخاري في «التاريخ الكبير»[٣]، إذ بعد أن أورد طرق هذا الحديث، وبيَّن ما فيها من اضطراب، قال: والخبر عن النبي ﷺ في الشفاعة، وأن قوماً يُعذَّبون ثم يخرجون أكثر وأبين وأشهر.

وهذا يدلُّ على أن الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ أضاف إلى اضطراب السند نقد المتن، وأنه مخالفٌ للأحاديث الصحيحة التي تكاد تبلغ حدَّ التواتر من أن ناساً من أمة محمد ﷺ يدخلون النار، ثم يخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ.

فلم يكن الشيخ ناصر ينظر إلى نقد المتن، بدعوى أن

---

(١) برقم (٩٥٩).
(٢) برقم (١٩٦٧٨).
(٣) (١/٣٨، ٣٩).

المتقدِّمين لم يضعوا منهجاً لنقده، وأنه لا ضوابط له، وهذا كلامٌ غير دقيق، ويكفي للتدليل على ذلك أن أذكِّر بكتاب «الإجابة فيما استدركته عائشة على الصَّحابة»، وهو كتابٌ في نقد المتون.

* * *

وثمة أمر آخر آخُذه عليه، وهو عدم تفريقه بين اللفظ الشاذ وزيادة الثقة، شأنه في ذلك شأن المحدِّثين المتأخرين، فالشذوذ واضح، وزيادة الثقة واضحة، ومعروف أن اللفظ الشاذ هو الذي يتفرَّد به راوٍ عن شيخه دون سائر أصحابه، إذ يقال لهذا الراوي: من أين أتيتَ بهذا اللفظ، والجمع الحافل لم يروه عن شيخك؟

وكان الأئمة المتقدِّمون يقبلون زيادة الثقة من إمام متقن، يفرِّق بين الزيادة والشذوذ.

وفي هذا السياق أذكر حديث وائل بن حُجْر في تحريك الإصبع في التشهد، فقد انفرد بلفظ «يحرِّكها» زائدة بن قدامة عن عاصم بن كليب دون سائر الرواة عن عاصم، وهم: عبد الواحد بن زياد، وشعبة، وسفيان الثوري، وزهير بن معاوية، وسفيان بن عُيَيْنة، وسلام بن سليم أبو الأحوص، وبشر بن المفضل، وعبد الله بن إدريس، وقيس بن الربيع، وأبو عوانة، وخالد بن عبد الله الواسطي، فقد قالوا جميعهم: «يشير بها» بدلاً من «يحركها»، وقد خرَّجتُ هذه الطرق في «مسند الإمام أحمد ابن حنبل»[1].

---

(١) برقم (١٨٨٧٠).

وعلَّل الشيخ ناصر في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»[1] تصحيحه لهذه اللفظة بقوله: إن الإشارة لا تنافي التحريك، كل ما في الأمر أنها ليست نصاً في التحريك، ولا هي تنافيه.

فهل هذا التعليق كافٍ في تصحيح هذه اللفظة الشاذة وفق منهج علماء الحديث المتقدِّمين؟

* * *

وفي بعض الأحايين كان يصحِّح أحاديث توافق ما يذهب إليه، وإن لم يكن لها شاهد تتقوَّى به، أذكر من ذلك حديث عدي بن حاتم حين سمع النبي ﷺ يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، فقال عدي: إنا لسنا نعبدهم. فقال له النبي ﷺ: **«أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه، فتلك عبادتهم».**

هذا الحديث ضعَّفه الإمام الترمذي في «جامعه»[3]، وليس له شاهد يتقوى به، ومع ذلك صححه الشيخ ناصر في كتابه «صحيح الترمذي»[4].

---

(١) برقم (٣١٨١).

(٢) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٣) برقم (٣٣٥٢) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٤) برقم (٣٠٩٥).

ونقل في كتابه «سلسلة الأحاديث الصحيحة»[1] عن العلامة الآلوسي في تفسيره «روح المعاني»[2] قوله: والآية ناعية على كثير من الفرق الضَّالة الذين تركوا كتاب الله وسُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحقُّ بالاتباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه، وإن أخطأ اجتهاد مقلده.

فكان الشيخ ناصر يلمز الأئمة المتبوعين مستشهداً بهذا الحديث، وقد جرى مرة كلامٌ بيني وبينه حول هذا الموضوع، وقلتُ له: فرق كبيرٌ بين من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، لأنهم كانوا يحلون لهم ما حُرِّم عليهم، وبين الأئمة المجتهدين كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، هؤلاء كانوا يعتمدون على الكتاب والسنة في اجتهادهم، فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجرٌ واحد، وفي المساواة بينهم وبين الأحبار والرهبان شططٌ كبير.

❑❑❑

---

(١) برقم (٣٢٩٣).

(٢) ج١٠/ ٢٩٩ (طبعة مؤسسة الرسالة).

[٣]

ثم إنَّ الشيخ ناصر الدِّين لم يكن له منهجٌ واضح في نتاجه الحديثي عدا رسائله الصغيرة، فقديماً كان يبحث في الأحاديث الضعيفة التي يجدها في الجامِعَيْن: «الكبير» و«الصغير» للإمام السيوطي، ويسجل ما يقرؤه عنها في الأجزاء الحديثية في المكتبة الظاهرية على ورقة مفردة، وكلما تجمَّع لديه نحو مئة حديث أو أكثر كان يُصْدرها في رسالة صغيرة، وفي هذه الأحاديث الموضوع والباطل.

وأنا أرى أنه لم يكن ثمة داعٍ إلى نشرها بين الناس من جديد، لأنها غدت منسية، ولا يعرفها أحدٌ من المعاصرين، مثل حديث: «**عليكم بالعدس فإنه قُدِّس على لسان سبعين نبيًّا**»، فهو قد نشره في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»[1]، وكان الأَوْلى أن تبقى هذه الأحاديث الموضوعة مغمورة في ظلام النسيان، أما الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس، فلا بأس بتبيان حالها، ونقدها، وله في هذا الباب جهدٌ مشكور، جزاه الله خيراً.

---

(١) برقم (٤٠) و(٥١٠).

وكذلك في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، لم يكن له فيها منهجٌ واضح، إذ كان يُجري دراسة حديثية على كلِّ حديث صحيح يقف عليه، ويُدرجه في هذه السلسلة، وليس لهذه الأحاديث جامعٌ يجمعها إلا اعتقاده بصحتها، وليس هذا سبباً كافياً في رأيي لتجمع في كتاب مستقل، لو كان يجمعها موضوعٌ ما لكان أحسن.

* * *

ومن الأمور التي آخذها عليه كذلك حذفه لأسانيد السُّنَن الأربعة: أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، لما نشر صحيحَها وضعيفها، وكان ينبغي للأمانة العلمية ألا يحذف هذه الأسانيد، لأن مدار معرفة الصحيح والضعيف عليها، وكأنِّي به يريد أن يقول للناس: إنَّ عليهم أن يثقوا بعمله هو، فما وصل إليه من حكم، فهو الحق الذي لا يناقش!

ثم إن هذا الفصل بين الحديث الصحيح والضعيف هو فصلٌ تعسفي، وربما قصد من ورائه أن يُهمل الحديث الضعيف من السنن الأربعة، فكثيرٌ من هذه الأحاديث الضعيفة هي شواهدُ للأحاديث الصحيحة، فلا ينبغي أبداً فصلها عنها.

وهذا حقاً ما أراده أبو داود حين ألَّف كتابه «السنن»، وكذلك ما أراده الترمذي والنَّسائي وابن ماجه، إذ لو أرادوا أن يقتصروا فيها على الحديث الصحيح لفعلوا، ولهذا أعدُّ عمل الشيخ ناصر في السُّنَن من الأعمال التي لا يُحمد عليها.

* * *

وأمر آخر آخذه عليه كذلك، وهو أنه إذا صحَّحَ حديثاً، وقد ضعَّفه غيره من الحفاظ لا يذكر مَنْ ضعفه، ولو أنه ذكر ذلك لترك للناس حرية الموازنة بين حكمه وحكمهم، وكأنه يريد بذلك أن يدفع الناس إلى اتباع أقواله فحسب، وليس هذا من الإنصاف في شيء.

ومن ثم أرى أن يعاد النظر في عمل الشيخ ناصر على النحو الآتي:

١ ـ ما صحَّحه من الأحاديث أو ضعَّفه، وقد سبقه الأئمة المتقدِّمون إلى تصحيحه أو تضعيفه يبقى على ما هو عليه.

٢ ـ ما صححه من الأحاديث أو ضعفه، وقد خالف الأئمة المتقدمين في تصحيحه أو تضعيفه ينبغي أن يُوازن بين الحُكْمين، ويُحكم فيه للشيخ ناصر أو عليه.

وأعيد القول: إن الشيخ ناصر الدِّين محدِّث، ولا أقول إنه حافظ العصر، وقد سلخ من عمره نحو ستين سنة في دراسة هذا العلم الشريف، فأكسبه ذلك خبرة جيدة فيه، ومن الإجحاف أن تُغفل هذه الخبرة في هذا الباب.

❑❑❑

[٤]

وتابع الشيخ شعيب قائلاً: أما في الفقه، فلا أعلم له مسألة تجعلني أرتاح إلى دليلها، وأقبل بها، لأن الفقه ليس من فنِّه، ولم يتفرَّغ له كما تفرَّغ لعلم الحديث، كل ما في الأمر أنه تلقف المسائل الشَّاذة التي قال بها بعضُ العلماء، وحاول أن يبني منها منهجاً في الفقه.

خذ مثلاً قوله بعدم وجوب الزَّكاة في عروض التجارة، فقد سبقه إليه ابنُ حزم في «المُحلَّى»، وتبعه الشَّوْكاني في «الدُّرَر البهية»، وصدِّيق حسن خان في شرحه «الروضة الندية»[١].

وليس لهم مستند فيما ذهبوا إليه إلا أنه ليس ثمة حديث عن النبي ﷺ يوجب الزكاة في عروض التجارة[٢].

وكذلك قوله في الحاصلات الزراعية التي تجب فيها الزكاة، فقد قصرها على أربعة أصناف، هي: القمح، والشعير، والتمر،

---

(١) «المحلى» (٥/ ٢٣٣ ـ ٢٤٠)، و«السموط الذهبية الحاوية للدرر البهية» (ص١٠٧)، و«الروضة الندية» (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) «تمام المنة في التعليق على فقه السُّنَّة» (ص٣٦٥ ـ ٣٦٦).

والزبيب، متابعاً في ذلك الشوكاني[1]، لأنه لا نصَّ إلا على هذه الأربعة، فلا يصحُّ قياس غيرها عليها[2].

أما جمهور الفقهاء، فقد قالوا بوجوب الزكاة في عروض التجارة، وقياس ما كان قوتاً للبلد على تلك الأصناف الأربعة.

وأنا أعجب حقاً كيف قال بهذا القول، وهو يعلم أنَّ التاجر لا يضع ما يملكه من المال في صندوقه، وإنما يحوله دائماً إلى بضاعة كيلا يخسر، فهل يقال: إن ما يملكه التاجر فحسب هو ذلك المال الذي في الصندوق، بينما مستودعاته تزخر ببضائعه؟!

هذا يدل على قصر نظر عن مقاصد الشريعة في فريضة الزكاة، ويدل كذلك على أن الشيخ ناصر الدِّين لا يعرف من الإسلام نظامه الاقتصادي.

* * *

ومن تلك الأقوال الشَّاذة التي اعتمدها ما قاله في تحريم الذهب المُحلَّق للنساء.

فهو يقلِّد بذلك ابنَ حزم في كتابه «المُحَلَّى»[3]، وبعد أن يسوق الشيخ ناصر في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»[4] الأدلة التي يعتقد

---

(١) «نيل الأوطار» (٤/ ١٥٢)، و«السموط الذهبية» (ص١٠٨).
(٢) «تمام المنة» (ص٣٦٨ ـ ٣٦٩).
(٣) «المحلى» (١٠/ ٨٤).
(٤) (ج١/ ق٢/ ص٦٦٢)

أنها تحرِّمه، يقول: ولا يلتفت المسلم إلى أي قول يخالف ما ثبت عنه ﷺ مهما كان شأن قائله فضلاً وعلماً وصلاحاً، لانتفاء العصمة، وهذا من الأسباب التي تشجعنا على الاستمرار في خطتنا من التمسك بالكتاب والسنة، وعدم الاعتداد بما سواهما.

فهو يعتقد أنه إذا صحَّح حديثاً، فقد انتهت المشكلة، وهذا تبسيط مخلٌّ للأمور.

فالأئمة المتقدِّمون لم يكونوا يرفضون الحديث الصحيح، معاذ الله أن يفعلوا ذلك، ولكن كانوا يضعونه في سياقه الملائم له.

خذ مثلاً حديث أنس الذي رواه عن النبي ﷺ حين سأله الصحابة: سَعِّرْ لنا. فأجابهم النبي ﷺ: **«إن الله هو المُسَعِّر القابض الباسط الرَّازق»**.

فهذا الحديث أخرجه الترمذي في «جامعه»[1]، ومع ذلك فقد أخذ الأئمة المجتهدون بالتسعير، لأنهم قالوا: إن هذا الحديث حقٌّ وصدق، قاله رسول الله ﷺ، ولكنه من العام الذي أريد به الخاصّ، قصروه على أنه إذا صلح أمر البائع والمشتري، ولم يكن عندهما هذا الجشع الذي هو عند الناس الآن، ففي ذلك المجتمع يترك التسعير، ولكن إذا ما تغيَّر المجتمع فلا بد من التسعير،

---

(١) برقم (١٣٦١) طبعة مؤسسة الرسالة.

وقد جمع أقوال العلماء في ذلك الشيخ محمد بخيت المطيعي في تكملته لكتاب «المجموع» للإمام النووي[1].

بيد أن الشيخ ناصر الدِّين لا يلتفت لمثل هذه الأمور، فما دام الحديث يصح عنده، فلا تجوز مخالفته، والأئمة لم يخالفوه كذلك غير أنهم كانوا يوضِّحون حديث رسول الله ﷺ، ويتابعون وظيفته في البيان، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]، يعني: لتوضِّح لهم، فهؤلاء الأئمة المجتهدون يوضِّحون كذلك، ولكنهم غير معصومين، فهم يصيبون ويخطئون، ولكن المنهج الذي انتهجوه في فهم النصوص يُفضي إلى الفهم الصحيح للشريعة.

وكما أسلفتُ القول: إنهم لم يردُّوا حديثاً إلا وكان في الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من ردَّه، ولم يأخذوا بحديث وإلَّا وكان في الصحابة من أخذ به.

انظر مثلاً حديث: «**من مسَّ ذكره فليتوضأ**»، وقد أخرجه أحمد في «المسند»[3]، وهو حديثٌ صحيح، أخذ به الشافعي، وانظر حديث: «**إنَّما هو بَضْعَةٌ منك**»، وقد أخرجه كذلك أحمد في «المسند»[4]، وهو حديث حسن، أخذ به أبو حنيفة، فعند الشافعي

---

(١) «المجموع» (١٣/ ٢٩ ـ ٣٨).
(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٣) برقم (٢٧٢٩٣).
(٤) برقم (١٦٢٨٦).

مسُّ الذكر ينقض الوضوء، وعند أبي حنيفة لا ينقض الوضوء، وكلٌّ منها اعتمد حديثاً يصحُّ فيما ذهب إليه.

وكذلك الصحابة بعضهم أخذ بهذا الحديث، وبعضهم أخذ بذاك الحديث، والتابعون مثلهم كذلك.

فالخلاف ـ كما قلت ـ بدأ من عصر الصحابة، والله عز وجل وصف الصحابة بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، وأنا لا أعتقد أن هذه الخيرية مقصورة على السلوك فحسب، بل على العلم أيضاً، لأن السلوك مبنيٌّ على العلم، وهذا العلم هو الذي أثمر ذلك السلوك.

فالخلاف ما دام في العقل والفهم، هو اختلاف تنوُّع، وهو مجالٌ للاجتهاد والإبداع، وهو مما رضيه الإسلام، وحثّ عليه، وأما إذا انتقل هذا الخلاف من العقل إلى القلب، وتولد عنه صراع وسبابٌ وشتائم وتدابر وحقد، فهو المنهيُّ عنه، وما لا يرضى به الإسلام أبداً.

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣.

[٥]

وله كذلك آراء في الفقه تدلُّ على بُعْده عن العصر الذي يعيش فيه، فقد بلغني عن غير واحد من تلامذته المقرِّبين لديه أنه كان يحرِّم ذهاب الطالب أو الطالبة إلى الجامعة بحُجَّة حرمة الاختلاط، وكأنه بذلك يريد تفريغ الجامعة من الطلبة المسلمين.

ثم إنه بدل أن يرسِّخ في الشباب المسلم أصول الإسلام العامة، ويوضح منهجه، راح يدعو إلى أشياء ليس في طرحها كبير فائدة في هذا العصر، مثل إطلاق اللحية، وعدم لبس البنطال!

فكما هو لا يعرف من الإسلام نظامه الاقتصادي، كذلك لا يعرف نظامه الاجتماعي، بل ليست عنده تلك النظرة الشمولية لهذا الدِّين العظيم، لأنه لم يقرأ عنها، ولم يلتفت إليها.

فسلفية الشيخ ناصر لم تكن من أجل فهم أعمق لنصوص الشريعة، ولكسر التقليد الجامد الذي أصاب الأمة، وإنما كانت اتِّباعاً حرفيًّا للنص، يذكرك بداود الظاهري وابن حزم، اتِّباعاً

لا يعترف بوجوه التأويل الأخرى، فهي بهذا المعنى تركٌ لرحابة المذاهب الفقهية لصالح جمود أكثر ضيقاً وتشدُّداً.

* * *

ومع ذلك فأنا أحسبه رجلاً مخلصاً، طلب العلم لله تعالى، لا لجاه، ولا لمنزلة، ولا أزكي على الله أحداً.

وعلى إخلاصه آخذ عليه قسوته تجاه مخالفيه، ولدده في خصومتهم التي لا نعرفها في أهل العلم، يكفي أن تخالفه في مسألة من المسائل حتى ينبزك بأوصاف يصف بها دائماً مخالفيه، مثل: هذا جمهوري، أي على رأي جمهور الفقهاء، وكأن ذلك مثلبة، وهذا لا يفقه، وهذا ليس بفنِّه، وهذا ليس عنده تحقيق، إلى غير ذلك من أوصاف لا يليق أن يتفوَّه بها إنسان، بَلْهَ عالماً.

وتسرَّبت قسوته هذه إلى أتباعه، وكلنا يذكر تلك المشاجرات التي كانت تقع في المساجد بسبب آرائه، وكيف حملتِ الناس على معاداة بعضهم بعضاً.

ونحن نعلم أن الأئمة المتقدِّمين كانوا يُدْلون بآرائهم، وكانوا يحترمون آراء الآخرين، ولم يكونوا يتلفظون بتلك الكلمات الجارحة في حقٍّ مخالفيهم، وكلنا نذكر كلمتهم التي نُقلت عنهم، وبلغت حدَّ الشهرة: رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصَّواب، ونذكر كذلك كلمة الإمام أحمد ابن حنبل في

الإمام إسحاق بن راهويه: ما عبر جسر بغداد أحدٌ أعلمُ من إسحاق بن راهويه، غير أننا نخالفه في أشياء.

ولعل قسوته هذه ناشئة من عدم أخذه بالقاعدة التي نصَّ عليها كبار الأئمة: لا يُنكر المُخْتَلف فيه، أي لا يُنكر على المجتهد في المسائل الخلافية، فهو كان على خلاف هذه القاعدة، يصبُّ نكيره على هذه الخلافيات.

أسأل الله تعالى أن يغفر له، وأن يتغمده برحمته، إنه خير مسؤول، والحمد لله ربِّ العالمين.

❑❑❑

ثَبْتٌ بالكُتُبِ التي حقَّقها

[١]

يعدُّ الشيخ شعيب من أغزر المحققين إنتاجاً، وقد توزَّعت أعماله ما بين المكتب الإسلامي ومؤسسة الرِّسالة، وسأبدأ باستعراض أعماله في المكتب الإسلامي(١)، مرتباً لها على سنوات صدورها:

المكتب الإسلامي

١ ـ «منار السَّبيل في شرح الدليل»، تأليف الشيخ إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضُوَيَّان، المتوفى سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م.

صدر في دمشق عن مؤسسة دار السلام سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م في مجلدين.

٢ ـ «مطالب أولي النُّهى في شرح غاية المنتهى»، تأليف الفقيه العلامة الشيخ مصطفى بن سَعْد السيوطي الرُّحيباني، المتوفى سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م.

وقد صدرفي دمشق سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٣٨٢هـ/ ١٩٦١م ـ

---

(١) وشاركه في بعض هذه الأعمال صديقه الأثير الشيخ عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله، وقد بينت ذلك في أثناء كلامي عن المكتب الإسلامي، فأغنى عن الإشارة هنا.

١٩٦٢م في ستة مجلدات.

وطبع معه حاشية العلامة الشيخ حسن بن عمر الشَّطِّي، المتوفى سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م، وهي «منحة مولى الفتح بتجريد زوائد الغاية والشرح».

٣ ـ «الكافي في فقه الإمام المبجَّل أحمد ابن حنبل»، تأليف شيخ الإسلام أبي محمد موفق الدِّين عبد الله بن قدامة المقدسي، المتوفى سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م.

وقد صدر في دمشق سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م في ثلاثة مجلدات.

٤ ـ «مختار الأغاني»، تأليف أبي الفضل جمال الدِّين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، المتوفى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م.

صدر في بيروت سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م في اثني عشر مجلداً.

٥ ـ «زاد المسير في علم التفسير»، تأليف الإمام أبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، المتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٠٢١م

صدر في بيروت بين سنتي ١٣٨٤هـ ـ ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٤م ـ ١٩٦٨م في تسعة مجلدات.

٦ ـ «المنازل والدِّيار»، تأليف مجد الدولة أسامة بن مرشد بن علي ابن منقذ الكناني، المتوفى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م.

صدر في بيروت سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م في جزأين.

٧ ـ «المبدع في شرح المقنع»، تأليف أبي إسحاق برهان الدِّين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح الحنبلي، المتوفى سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م.

صدر في بيروت ما بين سنتي ١٣٨٥هـ ـ ١٣٩٤هـ/ ١٩٦٥م ـ ١٩٧٤م، في تسعة أجزاء، ثم طبع جزؤه العاشر سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٨ ـ «روضة الطالبين»، تأليف الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م.

صدر في بيروت سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م في اثني عشر جزءاً، وقدم له شيخ الشافعية بدمشق العلامة محمد صالح العقاد.

٩ ـ «مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه»، تصنيف الإمام أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد الأموي المروزي، المتوفى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م.

صدر في بيروت سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٠ ـ «شرح السُّنَّة»، تأليف الإمام محيي السُّنَّة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م.

صدر في بيروت بين سنتي ١٣٩١هـ ـ ١٤٠٠هـ/ ١٩٧١م ـ ١٩٨٠م في ستة عشر جزءاً.

❑❑❑

[٢]

مؤسسة الرسالة

أما أعماله في مؤسسة الرِّسالة، فهي:

١ ـ «زاد المعاد في هدي خير العباد»، تأليف الإمام محمد بن أبي بكر الزُّرَعي الدِّمَشْقي، المعروف بابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م في خمسة أجزاء[١].

٢ ـ «سِيَر أَعلام النُّبَلاء»، تأليف الإمام شمس الدِّين أبي عبد الله محمد بن أحمد عثمان الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م.

صدرت طبعته الأولى ما بين سنتي ١٤٠١هـ ـ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨١م ـ ١٩٨٥م في ثلاثة وعشرين جزءاً[٢].

---

(١) شاركه في تحقيقه الشيخ عبد القادر الأرنؤوط.

(٢) شاركه في تحقيقه وتحت إشرافه الأساتذة: محمد نعيم العرقسوسي، مأمون الصاغرجي، حسين أسد، علي أبو زيد، كامل الخراط، صالح السمر، أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، وانفرد د. بشار عواد معروف، ود. محيي الدِّين هلال السرحان بتحقيق الأجزاء الثلاثة الأخيرة منه.

٣ ـ «رياض الصَّالحين»، تأليف الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م.
صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م(١).

٤ ـ «معرفة القرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار»، تأليف الإمام شمس الدِّين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م.
صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م في جزأين(٢).

٥ ـ «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات»، تأليف الإمام زين الدِّين مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي، المتوفى سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م.
صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٦ ـ «شرح العقيدة الطحاوية»، تأليف الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، المتوفى سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م.
صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م في جزأين(٣).

---

(١) كان الشيخ شعيب قد أعد طبعة منه، وصدرت عن دار المأمون للتراث.
(٢) شاركه في تحقيقه د. بشار عواد معروف، وصالح مهدي عباس.
(٣) شاركه في تحقيقه د. عبد الله بن عبد المحسن التركي.
وكان الشيخ شعيب قد نشره في دمشق سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، معتمداً في طبعته على نسخة الشيخ أحمد شاكر، مستدركاً ما وقع فيها من أخطاء وتحريفات، بيد أنها بقيت دون طبعته الأخيرة.

٧ ـ «المراسيل»، تصنيف الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، المتوفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م[1].

٨ ـ «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان»، تأليف الحافظ الإمام أبي حاتم محمد بن حبان البستي، المتوفى سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م.

بترتيب الأمير علاء الدِّين علي بن بَلْبان الفارسي، المتوفى سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م في ثمانية عشر مجلداً[2].

٩ ـ «تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام»، تأليف الإمام شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م.

لم يصدر منه سوى أربعة مجلدات سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م[3].

---

(١) وقد صدَّره بمقدمة ضافية، تضمنت تعريف المرسل، ومذاهب العلماء في الاحتجاج به، وحجة من رده مطلقاً، وحجة من قبله مطلقاً، وحجة من قبله بشروط، وحرر أقوال الأئمة الأربعة المتبوعين في العمل به.

(٢) شاركه في تحقيقه الشيخ محمد نعيم العرقسوسي، وله جهد مشكور في كتابة مقدمته.

(٣) شاركه في تحقيقه د. بشار عواد معروف، وصالح مهدي عباس.

١٠ ـ «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم»، تأليف الإمام الحافظ زين الدِّين عبد الرحمن بن أحمد شهاب الدِّين البغدادي الدمشقي، الشهير بابن رجب، المتوفى سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م في جزأين(١).

١١ ـ «العواصم من القواصم في الذَّبِّ عن سُنَّة أبي القاسم»، تصنيف الإمام محمد بن إبراهيم الوزير اليماني، المتوفى سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م في تسعة أجزاء(٢).

١٢ ـ «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبَّان»، تصنيف الحافظ نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي، المتوفى سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م في جزأين(٣).

١٣ ـ «الرَّصْف فيما رُوي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف»، تأليف محمد بن محمد بن عبد الله العاقولي، المتوفى سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، في جزأين(٤).

---

(١) شاركه في تحقيقه الأستاذ إبراهيم باجس.

(٢) صنعت له فهارس شاملة الأستاذة غزوة بدير، بيد أنها لم تطبع بعد.

(٣) شاركه في تحقيقه الأستاذ محمد رضوان العرقسوسي.

(٤) لم يكتب اسم الشيخ شعيب على غلافه نزولاً عند رغبة المتبرع بطباعته.

١٤ ـ «مسند الإمام أحمد ابن حنبل»، المتوفى سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م.
صدرت طبعته الأولى ما بين ١٤١٣هـ ـ ١٤٢١هـ/ ١٩٩٣م ـ ٢٠٠١م، في خمسة وأربعين جزءاً[١]، إضافة إلى خمسة أجزاء فهارس شاملة[٢].

١٥ ـ «شرح مُشْكل الآثار»[٣]، تأليف الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، المتوفى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م.
صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، في ستة عشر جزءاً.

١٦ ـ «الآداب الشَّرعيَّة والمِنَح المرعيَّة»، تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، المتوفى سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م.
صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، في ثلاثة أجزاء[٤].

---

(١) شاركه في تحقيقه الأساتذة: الشيخ محمد نعيم العرقسوسي، وإبراهيم الزيبق، وعادل مرشد، وعمل تحت إشرافهم الأساتذة: محمد رضوان العرقسوسي، ومحمد بركات، ومحمد أنس الخن، وهيثم عبد الغفور، وسعيد اللحام، وعامر غضبان، وجمال عبد اللطيف، وعبد اللطيف حرز الله، وأحمد برهوم.

(٢) صنعة الأساتذة: إبراهيم الزيبق، ومحمد رضوان العرقسوسي، ومحمد بركات، ومحمد أنس الخن.

(٣) هكذا أثبت عنوانه على غلافه المطبوع، أما في نسخه الخطية، فهو «بيان مشكل أحاديث رسول الله ﷺ، واستخراج ما فيها من الأحكام، ونفي المتضاد عنها».

(٤) شاركه في تحقيقه الأستاذ عمر القيام.

١٧ ـ «الدَّاء والدَّواء»[١]، تأليف الإمام محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م[٢].

١٨ ـ «سنن الدَّارَقُطْني»، تأليف الحافظ علي بن عمر الدارقطني، المتوفى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، في ستة أجزاء[٣].

١٩ ـ «السُّنَن»، تصنيف الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، المتوفى سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، في خمسة أجزاء[٤].

٢٠ ـ «الجامع الكبير، سنن الترمذي»، تأليف الإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، المتوفى سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، في ستة أجزاء[٥].

---

(١) ويسمَّى كذلك «الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي».

(٢) شاركه في تحقيقه الأستاذ محمد رضوان العرقسوسي.

(٣) شاركه في تحقيقه الأساتذة: حسن عبد المنعم شلبي، وعبد اللطيف حرز الله، وأحمد برهوم.

(٤) شاركه في تحقيقه الأساتذة: عادل مرشد، محمد كامل قره بللي، سعيد اللحام، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم.

(٥) شاركه في تحقيقه الأساتذة: عبد اللطيف حرز الله، محمد كامل قره بللي، هيثم عبد الغفور، جمال عبد اللطيف، سعيد اللحام.

٢١ ـ «سنن أبي داود»، تصنيف الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، المتوفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، في سبعة أجزاء[١].

٢٢ ـ «الاختيار لتعليل المختار»، تأليف الإمام الفقيه المحدث عبد الله بن محمود الموصلي، المتوفى سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، في أربعة أجزاء[٢].

٢٣ ـ «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه»، المعروف بصحيح البخاري، للإمام الحافظ الكبير محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، المتوفى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، في خمسة أجزاء[٣].

وله مؤلف:

٢٤ ـ «تحرير تقريب التهذيب»، استدرك فيه على الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م، في كتابه «تقريب التهذيب».

---

(١) شاركه في تحقيقه الأساتذة: محمد كامل قره بللي، وشادي محسن الشياب، وعبد اللطيف حرز الله.

(٢) شاركه في تحقيقه الأستاذان: أحمد برهوم، وعبد اللطيف حرز الله.

(٣) شاركه في تحقيقه الأساتذة: عادل مرشد، ومحمد يوسف الجوراني، وأحمد برهوم، وعامر غضبان، ومحمد أشرف الأتاسي.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، في أربعة أجزاء، وشاركه فيه الدكتور بشار عواد معروف.

وأشرف على تحقيق كتاب:

٢٥ ـ السنن الكبرى، تصنيف الإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النَّسائي، المتوفى سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م في عشرة أجزاء.

* * *

[٣]

وعن وزارة الأوقاف في الكويت، صدر له تحقيق كتاب:

٢٦ ـ «التعليق الممجَّد شرح موطَّأ محمَّد»، تأليف الإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي، المتوفى سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م.

صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، في أربعة أجزاء، وشاركه في تحقيقه الشيخ محمد نعيم العرقسوسي.

❑ ❑ ❑



صورة رقم (١)

الشيخ العلَّامة شعيب الأرنؤوط



صورة رقم (٢)

الشيخ شعيب الأرنؤوط في بيته بين صاحبيه:

الشيخ محمد بن ناصر العجمي، والأستاذ إبراهيم الزيبق



صورة رقم (٣)
الشيخ شعيب مدرِّساً في المعهد العربي الإسلامي



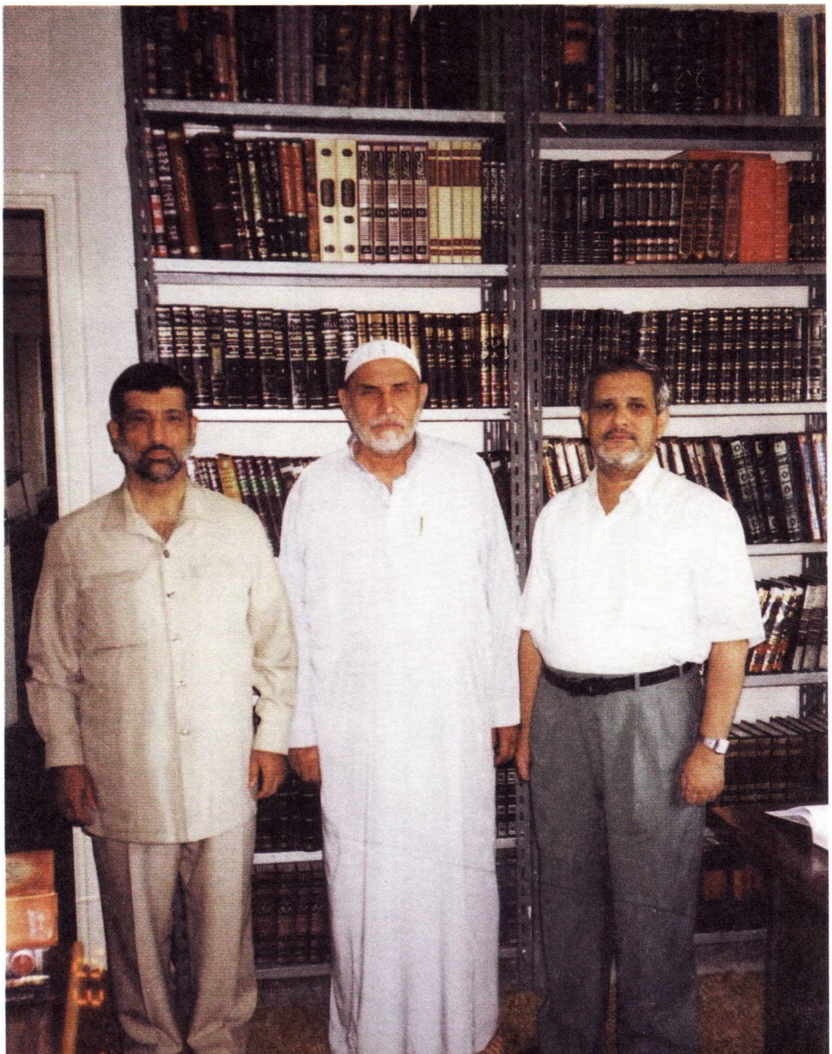
صورة رقم (٤)

الشيخ شعيب عقيب عودته من الحج



صورة رقم (٥)

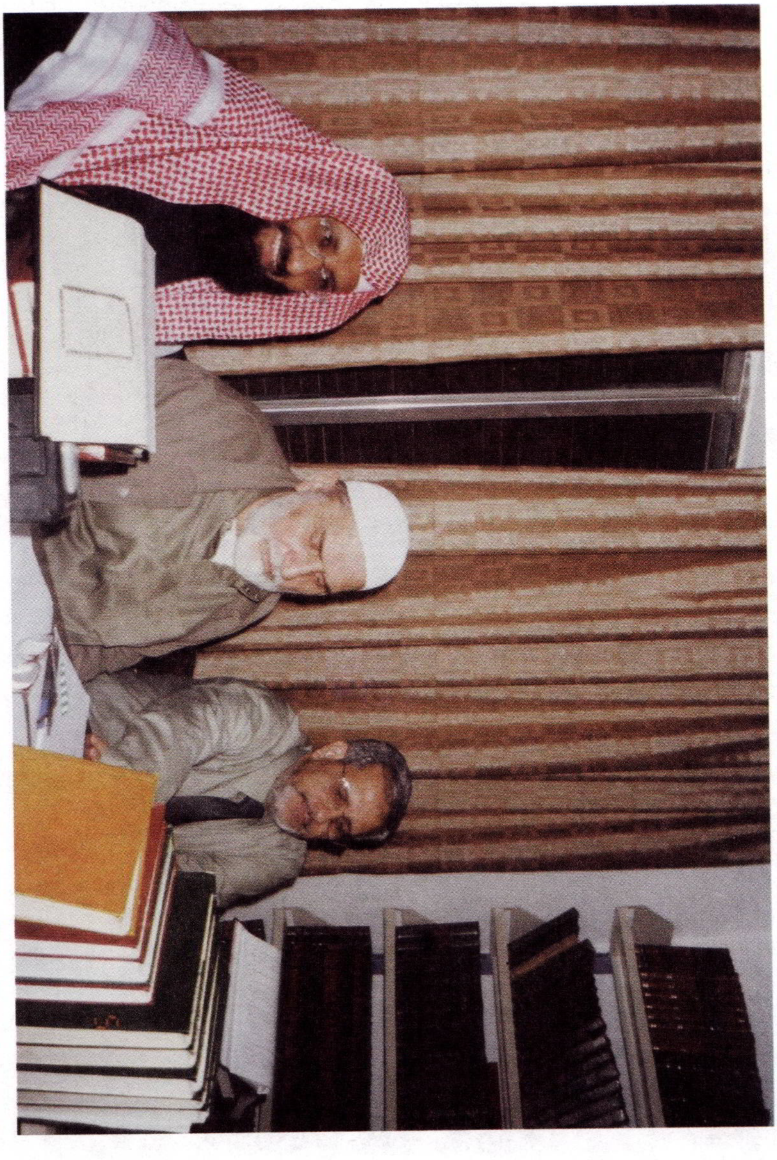
الشيخ شعيب في مكتبه بين صاحبيه الشيخ محمد نعيم العرقسوسي والأستاذ إبراهيم الزيبق، وأمامهم مسند الإمام أحمد بن حنبل بعد إنجازه



صورة رقم (٦)

الشيخ شعيب بين صاحبيه:

الشيخ محمد نعيم العرقسوسي، والأستاذ إبراهيم الزيبق



صورة رقم (٧)

الشيخ شعيب في مكتبه وبجانبه:

الشيخ محمد بن ناصر العجمي والأستاذ إبراهيم الزيبق

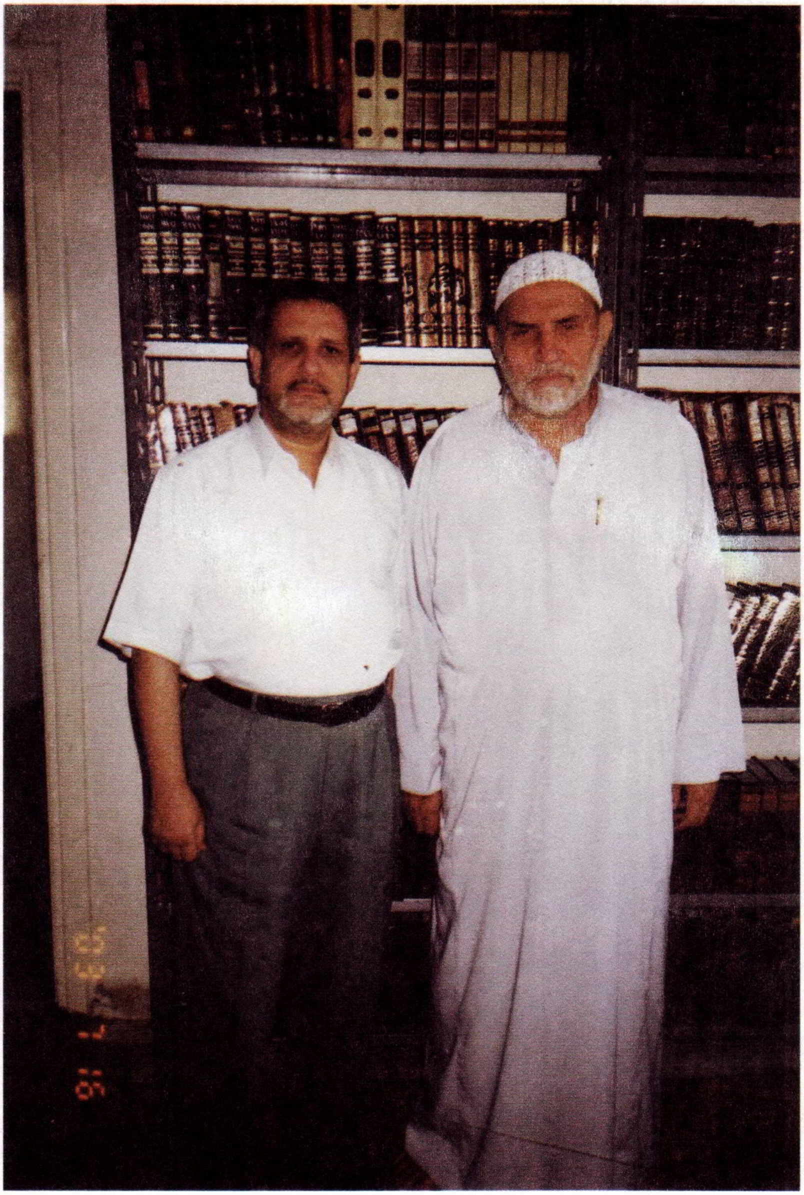


صورة رقم (٨)

من اليمين: الأستاذ إبراهيم الزيبق والشيخ شعيب
والدكتور إبراهيم الكوفحي والشيخ محمد نعيم العرقسوسي



صورة رقم (٩)
الشيخ شعيب في شبابه



صورة رقم (١٠)
الشيخ شعيب وبجانبه الأستاذ إبراهيم الزيبق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتتنزل البركات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل: «نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً، فبلغه غيره»

وبعد فيقول الفقير إلى عفو ربه شعيب بن محرم الأرنؤوط، فقد قدم صاحباي الفاضلان الأستاذ محمد نعيم العرقسوسي، والأستاذ إبراهيم الزيبق من مدينة دمشق المحروسة إلى عمان بقصد أن يقرآ علي كتاب نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر، وقد غمرني السرور وعمتني الفرحة، فنشطت لذلك، وابتدأنا قراءته قراءة تدبر وإمعان في يوم الأحد ٢٧ رجب من عام ١٤٢٢هـ، وانتهينا من قراءته غروب يوم الخميس في الثاني من شعبان، وقد علقنا عليه بما تدعو الحاجة إليه وإني وإن كنت أكبرهما سناً لأقر بأنهما قد بلغا في العلم والمعرفة لديهما في الحديث النبوي الشريف مبلغاً يغبطان عليه، فقد كانا في صحبتي والإفادة مني مدة عشرين عاماً، وقد اشتركا معي في تحقيق الكتب الكبار، وكانا نعم العون لي في هذا المجال، وأنا أعتز بهما وأباهي بهما، وأسأل الله أن يوفقهما لخدمة سنة نبيه صلى الله عليه وسلم حتى تحققا الغاية التي أخذنا على أنفسنا تحقيقها، وهي إخراج الموسوعة الحديثية المصححة، وتيسيرها لانتفاع الكل المسلمين على اختلاف مستوياتهم، والله الموفق لا رب سواه.

عمان ٧/شعبان/١٤٢٢

شعيب

إجازة الشيخ شعيب بخطّه

لصاحبيه: الشيخ محمد نعيم العرقسوسي والأستاذ إبراهيم الزيبق

في كتاب «نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر»

للحافظ ابن حجر

المحتوى

❑❑❑